بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنيّة
كليّة الدرسات العليا

مفهوم الذوق في البلاغة العربيّة من عبد القاهر الجرجانيّ ، إلى السكاكيّ

إعداد

إبراهيم أحمد حسن سليمان

إشراف

الأستاذ الدكتور «محمد بركات» أبو علي

قُدِّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربيّة ، كلية الدراسات العليا، في الجامعة الأردنية.

كانون الأول / ١٩٩٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٨/كانون الأول/١٩٩٤م، وأُجيزت.

أعضاء اللجنة:	التوقيع
١- الأستاذ الدكتور «محمد بركات» أبو علي.	
٢- الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي.	
٣- الدكتور عبد الكريم أحمد الحياري	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشكر

بالغ شكري، وعظيم تقديري أزجيه إلى أستاذي الدكتور "محمد بركات" أبو علي كفاء ما أسبغ عليَّ من جليل توجيهه، وعظيم رعايته هذه الدراسة.

ولئن قصّرتْ عن شكره عبارتي ، فأسأل الله ، أن يوفيه أجره بظهر الغيب.

وأما أستاذاي الجليلان: الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، والدكتور عبد الكريم الحياري، فإني مدين لهما بقبول مناقشتي ، وتكبد عناء قراءة هذه الدراسة وتوجيهها وتقويمها.

ولا يفوتني أن أشكر أساتذتي كافةً في قسم اللغة العربيّة وآدابها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتـــويـــات

الموضوع	رقم الصفحة
قرار اللجنة	ب
الشكر	جـ
المحتويات	د
الملخص باللغة العربيّة	هـ
المقدمة:	١
التمهيد:	٣
الفصل الأول:	
مفهوم الذوق عند الجرجاني	١٩
توطئة	١٩
في الرؤية النظرية	٢٢
في التعليل	٢٨
في التطبيق	٣٤
الفصل الثاني:	
مفهوم الذوق عند الزمخشري	٤٥
مفهوم الذوق عند الرازي	٥٢
الفصل الثالث:	
مفهوم الذوق عند السكاكي	٦١
الخاتمة:	٧٦
المصارد والمراجع:	٧٩
الملخص باللغة الإنجليزية :	٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخّص

"مفهوم الذوق في البلاغة العربية من عبد القاهر الجرجانيّ إلى السكاكيّ"

إعداد

ابراهيم أحمد حسن سليمان

اشراف

الأستاذ الدكتور «محمد بركات» أبو علي

تحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على مفهوم الذوق في البلاغة العربيّة؛ وذلك من خلال تمهيد وثلاثة فصول. تناول الفصل الأول مفهوم الذوق عند عبد القاهر الجرجانيّ (تـ ٤٧١هـ)، فكان في منهج الجرجانيّ معياراً أساسياً في التحليل البلاغي، والكشف عن القيم الجماليّة في النـص. وتناول الفصل الثاني مفهوم الذوق عند من جاؤوا بعد الجرجانيّ، فعرضت الدراسة مفهوم الذوق عند الزمخشريّ (تـ ٥٣٨ هـ)، إذ عوّل الزمخشريّ على الذوق معياراً في التحليل البياني للنصّ القرآني، وذلك في تفسيره (الكشاف).

وأما الرازي (تـ ٦٠٦ هـ)، فيعدُّ عمله بداية لحلقة جديدة في البلاغة العربيّة تمثلت في النزوع بالبلاغة إلى المنطق والفلسفة وأهملت الذوق والروح الأدبيّة. وتناول الفصل الثالث مفهوم الذوق عند السكاكي (تـ ٦٢٦ هـ)، إذ نضج على يديه اتجاه المنطق والتقعيد للبلاغة، وعلى الرغم من دعوة السكاكي للذوق، والتنويه بأهميته في الكشف عن حقيقة الإعجاز القرآني لم يمارس تطبيق هذا المفهوم في كتابه (المفتاح). وهكذا بدأت البلاغة معتمدة على الذوق في إطاره النظري والتطبيقي عند الجرجانيّ، والزمخشريّ، وانتهت جملة من القواعد المنطقية الفلسفية الجامدة عند الرازي والسكاكي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقـــدمـــة

ظل الذوق محلّ عناية الأدباء والنقاد وأصحاب دراسات الإعجاز القرآني، والمشتغلين بالدراسات الفلسفية، وما ذاك، إلا لأهمية الذوق في نظرية المعرفة، والتفسير الجمالي، والكشف عن معاني القول العربي، وأسرار الإعجاز القرآني.

أما أن يدرس الذوق عند البلاغيين بهذا التحديد، من عبد القاهر الجرجانيّ «ت ٤٧١ – هـ»، إلى السكاكيّ «ت ٦٢٦ – هـ» – فهذا ما لم أقع عليه في فهارس الرسائل الجامعية، وفي ما تيسر لي من الاطلاع، ومساءلة أساتذتي الأفاضل. وجل الدراسات البلاغية التي تناولت قضايا في البلاغة العربية، أو مؤلفات بلاغية بعينها – كانت تشير إلى هذا المفهوم إشارات وجيزة، في حدود ما تسمح به مناهج تلك الدراسات وغاياتها.

و الدراسات التي تناولت عبد القاهر الجرجانيّ : دراسة د. أحمد أحمد بدوي، (١) دراسة أحمد دهمان (٢)، ودراسة د. أحمد مطلوب (٣)، ودراسة عبد الكريم الحياري (٤) ، فهذه الدراسات أشارت إلى الذوق عند عبد القاهر الجرجانيّ ، في فصول وجيزة ، إذ لم تكن غاياتها دراسة الذوق، فجاء الذوق ضمن سياق موضوعاتها لبيان منهج الجرجانيّ في البلاغة.

وثمة دراسة تناولت تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجانيّ ، (٥) وقد عرض الباحث فيها طريقة الجرجانيّ في تربية الذوق ، من خلال الأبواب التي عقدها في الدلائل والأسرار .

وأما السكاليّ ، فإن أظهر الدراسات فيه دراسة أحمد مطلوب (٦) ، إذ عرض فيها للذوق عند السكاليّ .

---

(١) انظر : أحمد أحمد بدوي ، عبد القاهر وجهوده في البلاغة ص ص ٢٨٠-٢٩٧ .
(٢) انظر : أحمد دهمان ، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجانيّ ص ص ٨٤١ – ٨٥٨ .
(٣) انظر : أحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجانيّ ، بلاغته ونقده ص ص ٢٠٥ – ٢١٧ .
(٤) انظر : عبد الكريم الحياري ، عبد القاهر الجرجانيّ ، في أسرار البلاغة .
(٥) د. عبد العزيز عبد المعطي ، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجانيّ .
(٦) أحمد مطلوب ، البلاغة عند السكاليّ ، ص ص ٣٣٦ – ٣٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يحظ البلاغيون الآخرون – فيما اطّلعت – بمثل هذه الدراسات .

كانت مهمة هذه الدراسة تتبع مفهوم الذوق عند البلاغيين، وضم جهود الباحثين في هذا الصدد؛ لتشكل في جملتها إسهاماً في محيط الدراسات البلاغية، يبرز صورة واضحة لتطور هذا المفهوم في البلاغة العربيّة .

ولقد اعتمدت في ذلك على المصادر الأساسية للفترة التي تناولتها الدراسة، وأفدت من الدراسات الحديثة التي تناولت مفهوم الذوق، سواءٌ أكان في مجال النقد الأدبي أم البلاغة.

ولعل العقبة التي واجهتني في هذه الدراسة كانت في صعوبة الوقوف على المادة التي تشكل بنية الفصلين: الثاني والثالث، بشكل خاص؛ ذلك لاهتمام البلاغيين الذين جاؤوا بعد الجرجانيّ بالتقعيد المنطقي للمصطلح البلاغي، لا سيما عند الرازي والسكاكيّ.

وأما بالنسبة إلى أجزاء هذه الرسالة، فجاءت في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

تناولت في التمهيد عرضاً لمفهوم الذوق عند النقاد القدامى، وتتبعت تطور هذا المفهوم حتى عبد القاهر. وأما الفصل الأول فقد درست فيه الذوق عند الجرجانيّ، والفصل الثاني درست فيه الذوق عند من جاؤوا بعد الجرجانيّ؛ فوقفته على علمين من البلاغيين، هما: الزمخشري والرازي. ودرست في الفصل الثالث الذوق عند السكاكيّ وابن الزملكانيّ ولخصت في الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وبعد، فلقد طال أمد هذه الدراسة ما بين مبتدئها إلى منتهاها؛ فاستغرقت مني زمانا، كانت تحول بيني وبين تفرغي للدرس حوائل، فكتبت أجزاءها في فترات متراخية، ولكني كنت حريصا كل الحرص، أن تخرج في الغاية التي أرجو من التمام، ومع ذلك فلعل فيها من الهنات ما يستوجب المعاودة والمراجعة، وبحسبي من الخير أن اجتهدت وغايتي الإحسان.

والله ولي التوفيق

الباحث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيـــد

لا يجد المنعم في دراسة الأدب ونقده محيداً عن الوقوف على مفهوم الذوق، وعلاقته بالدراسة النقدية والبلاغيّة.

وسأحاول في هذا التمهيد – أن أعرض هذا المصطلح في حدود دلالتيه : اللغوية والاصطلاحيّة، ومفهوماته في الإطار الأدبيّ، وما انبثق عنه من قضايا نقديةٍ عبر تاريخ النقد الأدبيّ العربيّ – وحتى عبد القاهر الجرجانيّ، فإذا استوت هذه الوجهة وخلصنا إلى الوقوف على مفهوم الذوق في الثقافة الأدبية، استطعنا أن نتبين مكانة هذا المفهوم في بلاغتنا العربية، وعلاقتها بها، وتأثيره فيها.

ينصرف (الذوق) في اللغة إلى دلالة حسية : هي التمييز بين الطعوم، إذا استخدمت اللفظة على الحقيقة، فقد جاء في اللسان: الذوق مصدر ذاق الشيء يذوقه ذوقاً، وذواقاً، ومذاقاً؛ فالذوق والمذاق يكونان مصدرين، ويكونان طعما. كما تقول: ذواقه ومذاقه طيب. وفي الحديث: لم يكن يذم «ذواقاً» (فَعَال) بمعنى مفعول من الذوق (١) أما إذا استخدمت اللفظة على المجاز، فثمة دلالات كثيرة، تدور جميعها في معنى مركزي واحد، هو: خبرة الشيء ومعرفته وتجربته. من ذلك: ذقت فلانا، وذقت ما عنده، أي: خبرته، وتذوقته، أي: ذقته شيئا فشيئا، وأمر مستذاق، أي: مجرب معلوم، وذاق القوس: تعرفها ينظر ما مقدار إعطائها واستذاق الأمر لفلان: انقاد له وطاوع، وهو حسن الذوق للشعر، إذا كان مطبوعا عليه، ودعني أتذوق طعم فلان، وتذوقت طعم فراقه.(٢).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ذوق).
(٢) المصدر نفسه، وانظر: الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (ذوق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما على صعيد النص القرآني، فلقد استخدمت مادة الذوق في بضع وستين آية في صيغ مختلفات، (١) تراوحت بين الدلالة الحسية المتصلة بالفم على الحقيقة، والدلالة المعنوية على المجاز، ومثال الأولى قوله تعالى: "فلما ذاقا الشجرة، بدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ..." (٢)، فالذوق هنا بمعنى الأكل وتحسس الطعم، ومثال الثانية قوله تعالى في مقام وقوع العذاب: "فكفرت بأنعم الله. فأذاقها الله لباس الجوع والخوف.." (٣) وقوله تعالى في مقام حلول الرحمة. (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة، ثم نزعناها منه، إنه ليؤوس كفور) (٤).

ويتضح مما سبق، أن ثمة دلالة عامة تنتظم جملة استخدامات لفظة الذوق، تتمثل في أداة بلوغ حقيقة الشيء، وسبر غوره ومعرفته، من خلال المعاينة والتجربة والخبرة، سواء أجاءت على الحقيقة أم على المجاز.

أما الذوق، من حيث هو مصطلح علمي في المعرفة، فنجده قد حمل غير مفهوم في الفكر العربي (٥)، بيد أنا – هنا – معنيون بهذا المصطلح من الوجهة النقدية والبلاغية، على أن الذوق في حديه: النقدي والبلاغي، قد استعمل متأخرا ولكنّ مفهومه كان قائما في قضية الحكم على الأثر الأدبي وتقويمه، تلك القضية التي أخذت جانبا كبيرا من اهتمام النقاد العرب، إذ «رأوا أن المقاييس والقواعد التي جهدوا في جمعها، لاتكفي للحكم على الأثر الأدبي، وأن الذوق المدرب هو الفيصل حين تفشل القواعد والقوانين». (٦)

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٢٧٩– ٢٨٠.
(٢) الاعراف، الآية ٦.
(٣) النحل، الآية ٧.
(٤) هود، الآية ١١.
(٥) الذوق من مصطلحات الصوفية، وهو عندهم:"نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرّقون به بين الحق والباطل، من غير ان ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره ".انظر: التعريفات، لأبي الحسن الجرجانيّ ص ٨٥، والمعجم الفلسفي لجميل صليبا، مادة ذوق.
(٦) د. محمود السمرة، القاضي الجرجانيّ، ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل ابن سلام الجمحي، من أوائل النقاد العرب الذين أثاروا قضية الذوق، فقد أوضح الجمحي مفهوم الذوق عنده دون الإشارة إلى هذا المصطلح؛ وذلك في مقدمة كتابه الطبقات؛ ويرى «أن للشعر صناعة وثقافة، يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منهاما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»، (١) ، ويذهب في تفسير مفهومه للذوق إلى التمثيل بالجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والياقوت التي لاتدرك قيمتها بصفة ولا وزن، دون المعاينة من ذوي البصر والخبرة بها،ثم يذهب إلى التمثيل بالدينار والدرهم، وضروب من المتاع مختلفة، وينتهي بالتمثيل بذوي البصر بالرقيق؛ ليؤكد أنه لا يمكن درك قيمة هذه الأشياء بغير المعاينة التي تفضي إلى حكم لا علة له غير الخبرة التي تتأتى من طول الممارسة والدربة (٢) وهو بذلك يرى أن وسيلة معرفة الشعر، والحكم عليه هي ذوق العلماء وأن هذا الذوق هو الحكم الفصل، وحكم الذوق عند الجمحي غير قابل للتعليل.(٣) ونلحظ هنا كذلك دعوة الجمحي إلى تربية الذوق بالخبرة والممارسة (٤)

وهكذا نرى أن مفهوم الذوق عند الجمحي هو قدرة على إدراك حقيقة العمل الأدبي المتمثل في الشعر والحكم عليه، دون تبيان الأسباب التي تقف وراء هذا الحكم. ويرى د.عبد العزيز عرفة أن الجمحي في تقسيمه الشعراء إلى طبقات يقدم للذوق البلاغي مبادئ وأسس فنية تسهم في ترشيد الذوق وصقله (٥)

أما الذوق عند ابن طباطبا في كتابه عيار الشعر، فلقد جاء الحديث فيه عاما، خاليا من التفصيل والعمق واكتفى بسوق الأبيات الشعرية، ولعل أبرز ما جاء به هذا الناقد، أن الذوق يتأثر بالأحوال المختلفة التي تطرأ على نفس الإنسان بعد تأكيده اختلاف الأذواق بين الناس.

---

(١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء ، ص ٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٦ ، ٧.

(٣) انظر د . محمود السمرة ، القاضي الجرجانيّ، ص ١٥٥.

(٤) د. عبد العزيز عرفة، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر، ص ٣٤ .

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونجده يصدّر كتابه بالحديث عن أدوات الشعر، عادّا النظم (نظم الشعر) هو الخصيصة التي تميز الشعر من النثر، وأن الذوق الصحيح لدى الشاعر،يغني عن تعلم العروض التي هي ميزان الشعر، فبالذوق يستطيع الشاعر أن يميز صحة الأوزان، وأن الشاعر يستطيع أن يعالج فساد ذوقه، وضعف موهبته الشعرية بتعلم العروض لتصحيح شعره وتقويمه. يقول: «الشعر – أسعدك الله – كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خُص به من النظم الذي إن عدل عن جهته، مجتة الأسماع وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق، لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه، بمعرفة العروض، والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لاتكلف معه».(١)

ونلحظ هنا، أن ابن طباطبا، يقول بفطرية الذوق، ولكنه يرى أن الذوق قابل للتربية والتحصيل بالتعلم والمعرفة، حتى يصير كالطبع.

ثم يشير إلى اختلاف الأذواق عند الناس، وأثر ذلك في قبول الشعر «... وكذلك الأشعار، هي متفاضلة في الحسن، على تساويها في الجنس، ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصورالحسنة عندهم، واختيارهم لما يستحسنونه منها، ولكلٍ اختيارٌ يؤثره وهوى يتتبعه، وبغية لا يستبدل بها، ولا يؤثر سواها».(٢)

ونجده يتنبه لتأثر الذوق بالحالة النفسية لدى المتلقي، وأثر ذلك في استحسان العمل الفني أو استهجانه، ويرد علة حسن الشعر – أحيانا – إلى موافقته للحال ، إذ يقول : «ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه، علة أخرى، وهي موافقته للحال التي يعد معناه لها ، كالمدح في حال المفاخرة، وحضورمن يكبت بإنشاده من الأعداء، ومن يسر به من الأولياء ...» (٣)

---

(١) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ٣ ، ٤ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٧ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد ذلك مرة اخرى إذ يقول: وعلة كل حسن مقبول الاعتدال، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب، والنفس تسكن إلى ما وافق هواها، وتقلق مما يخالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها، اهتزت له، وحدثت لها أريحية وطرب، فإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت». (١)

والتذوّق الفني عند ابن طباطبا، مسألة يكتنفها شيء من الغموض، بحيث يصعب تحديد كيفية خاصة لها، فبعد أن يعرض علل قبول الشعر التي يراها في صحة وزن الشعر ، وصحة المعنى، وعذوبة اللفظ (٢)، يؤكد أن الأشعار تختلف في مواقعها في النفس ، إذ «إن للأشعار الحسنة على اختلافها مواقع لطيفة عند الفهم، لا تحد كيفيتها، كمواقع الطعوم المركبة، الخفية التركيب، اللذيذة المذاق، وكالأراييح الفائحة، المختلفة الطيب والنسيم، وكالنقوش الملونة التقاسيم والأصباغ، وكالإيقاع المختلف التأليف، وكالملامس اللذيذة الشهية الحسن، فهي تلائمه إذا وردت عليه، – أعني الأشعار الحسنة للفهم فيلتذها ويقبلها، ويرتشفها كارتشاف الصديان البارد الزلال». (٣)

وعند الآمدي، نجد امتداداً لحديث الجمحي في مفهوم الذوق، وإضافة عليه، كما يصرح الآمدي نفسه في كتابه (الموازنة) (٤). ولقد تنبّه على أهمية الذوق وعظيم خطره في دراسة الأدب ونقده، فراح يبسط هذه المسألة، ويحشد من الأمثلة ما يقرب مفهوم الذوق ويجلوه، وهو يستخدم (الطبع) بمعنى الذوق ولا يشير إلى مصطلح الذوق.

---

(١) ابن طباطبا، عيار الشعر، ص ١٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥ .

(٤) الموازنة، ٣٨٩/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذوق عنده، موهبة فطرية غير قابلة للاكتساب عند من لم يوهبها، ولا وسيلة لمعرفة الشعر، وتمييز رفيعه من ساقطه بغير الذوق المصقول بالمعرفة وطول الخبرة والتمرس، وأما تعليل الحكم الذي ينبثق عن الذوق، فذلك ممكن عنده احيانا، وممتنع أحيانا أخرى. يقول: «...، وأنصّ على الجيد وأفضله، وعلى الرديء وأرذله، وأذكر من علل الجميع، ما ينتهي إليه التلخيص، وتحيط به العبارة، ويبقى ما لايمكن إخراجه إلى البيان، ولا إظهاره إلى الاحتجاج، وهو علة ما لايعرف إلا بالدربة، ودائم التجربة، وطول الملابسة، وبهذا، يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم، ممن نقصت قريحته، وقلت دربته، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الصناعة، وامتزاج بها، وإلا، فلا يتم ذلك». (١)

ويؤكد الآمدي أهمية التمرس بالآثار الأدبية، والخبرة بها، في تربية الذوق، وتثقيفه وإقداره، ويضع هذه الخبرة شرطا للذوق الذي يقبل حكمه، ويرى أن تربية الذوق مسألة بالغة التعقيد، لا تتأتى بيسر؛ " لأن ما لا يدرك إلا على طول الزمان، ومرور الأيام، لا يجوز أن تحيط به في ساعة من النهار، ثم إن العلم الذي لا يُعلم في أكثر أحواله إلا بالرؤية والمشاهدة، لا يعرف حق المعرفة بالقول والصفة، وقد قيل: ليس الخبر كالمعاينة» (٢).

ومن ذلك، نلحظ أن الآمدي والجمحي، يتفقان في نظرتيهما إلى الذوق، من حيث هو موهبة فطرية تصقل بالمعرفة والممارسةالطويلة.

ولكن الآمدي، كان أقرب إلى الموضوعيّة، حين قرر أن حكم الذوق المدرب قابل للتعليل حينا، وممتنع منه حينا آخر، بينما يرى الجمحي استحالة تعليل حكم الذوق.

---

(١) الموازنة، ٣٨٩/١.
(٢) المصدر نفسه، ٣٩٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن النقاد الذين تحدثوا في قضية الذوق، القاضي أبو الحسن الجرجانيّ، فهو يعقد حديثا بالغ الأهمية عن مفهوم الذوق وآثره في النقد، ويستخدم «الطبع» مصطلحا يعبر به عن مفهوم الذوق، إضافة إلى استخدامه مصطلح الذو ق نفسه (١).

ويرى أن الذوق الموهوب، هو عدة النـــاقد الحق الذي يجـوز أن يحكم على العمل الأدبي، فيقبل حكمه (٢) بعد توافر الصفـــات التي نص عليـــها الجرجانيّ من قبل، وتتمثل في :العلم بالأخطـــاء الظاهـــرة التي يمـــكن أن يقـــع بهـــا الأديب، على صـعـيـد اللغـة والعـروض، والعـــلم بالخطأ الغامض الذي «يوصل إلى معرفة بعضه بالرواية، ويوقف على بعض بالدراية، ويحتاج في كثير منه إلى دقة الفطنة، وصفاء القريحة، ولطف الفكر، وبعد الغوص». (٣)

والذوق عند الجرجانيّ، موهبة تولد مع الإنسان، وتحتاج إلى كبير دربة وصقل، حتى تكون مؤهلة للحكم على الأدب، يقول: «وملاك ذلك كله، وتمامه الجامع له، والزمام عليه، صحة الطبع، وإدمان الرياضة، فإنهما أمران ما اجتمعا في شخص، فقعدا في إيصال صاحبهما عن غايته ورضيا له بدون نهايته» (٤).

٤٤٥٤٢٨

ويعرض القاضي الجرجانيّ، غموض عملية التذوق عند الناقد أوْ المتلقي التي تفضي إلى حكم، لا يملك صاحبه أن يقرنه بحجج عقلية تسنده وتؤكده، ويمثل لذلك «بالصورة تستكمل شرائط الحسن، وتستوفي أوصاف الكمال، وتذهب في الأنفس كل مذهب، وتقف من التمام بكل طريق، ثم تجد أُخرى دونها في انتظام المحاسن، والتئام الخلقة،

---

(١) القاضي الجرجانيّ، الوساطة، ص ٤١٣.
(٢) د. محمود السمرة، القاضي الجرجانيّ، ص ١٠٠.
(٣) القاضي الجرجانيّ، الوساطة، ص ٤١٣.
(٤) المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتناصف الأجزاء، وتقابل الأقسام، وهي أحظى بالحلاوة، وأدنى إلى القبول وأعلق بالنفس، وأسرع ممازجة للقلب، ثم لا تعلم وإنْ قاسيت، واعتبرت ونظرت وفكرت لهذه المزية سببا، ولما خصت به مقتضيا». (١)

وإذا كان ابن طباطبا، قد عرض تأثر الذوق بالحالات المختلفة التي تطرأ على النفس، واختلاف الذوق وفقا لهذه الحالات – فإن القاضي الجرجانيّ، يضيف بعدا آخر، أكثر عمقا ووضوحا، وهو ميل صاحب الذوق المدرب إلى أديب بعينه، أو عمل أدبي بعينه ، ميلا يطعن في صحة حكم الذوق، ويبين خطر ذلك على صعيد الحكم النقدي.

ويذهب د. محمود السمرة إلى عدِّ الموضوعية، صفة عند القاضي الجرجانيّ الناقد، ويرى السمرة : أن الموضوعية هي: "البعد عن الهوى"، ويضيف: «وهي صفة لا تخلق ناقدا، ولكن، لا بد منها في كل من يتصدى للنقد، ونحن قد رأينا أنه عندما جعل الذوق المدرب هو الحكم الفصل في روائع الأدب، أكبر الجانب الذاتي في النقد، وبهذا جعله فوق القواعد والنظريات». (٢)

ومع أن الجرجانيّ، يعلي شأن الذوق ويكبره، ويجعله فوق القواعد، والنظريات، وينقل النقد من العلمية الموضوعية، إلى الذاتية النفسية، (٣) فإنه يحترز في أن يجعل الذوق الحكم المطلق بدون قيود، فهاهو ذا يشترط في الناقد البعد من العصبية، – ولعل العصبية من الهوى الذي يعنيه د. السمرة – ؛ وذلك لأن «العصبية ربما كدّرت صفو الطبع، وفلّت حد الذهن، ولبست العلم بالشك، وحسنت للمنصف الميل، ومتى استحكمت ورسخت، صورت لك الشيء بغير صورته، وحالت بينك وبين تأمله، وتخطت بك الإحسان الظاهر،

---

(١) القاضي الجرجانيّ، الوساطة، ص ٤١٢.

(٢) د. محمود السمرة، القاضي الجرجانيّ ، ١٦٨.

(٣) المرجع نفسه، ١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى العيب الغامض، وما ملكت العصبية قلبا، فتركت فيه للتثبت موضعا، أو أبقت منه للإنصاف نصيبا». (١)

وبذلك نجد الجرجانيّ، قد أدرك أن الذوق ذاتي، وأن في الذاتية موضعا للهوى، فأراد أن يسبغ على الذوق شيئا من الموضوعية.؛ ليكون حكم الذوق خلوا من المزاج الشخصي والتعصب، والهوى. ولكن، ما مدى صدق ذلك على صعيد النقد التطبيقي؟ هل يمكن أن يتجرد الذوق من كل هوى، ليكون موضوعيا بحق؟

مما سبق، يمكن أن نتبين مفهوم الذوق عند القاضي الجرجانيّ، إذ إنه قوة يستطاع بها الوقوف على القيم الجمالية في العمل الأدبي، وهذه القوة موهوبة، لا سبيل إلى اكتسابها، ولكنها بحاجة إلى الصقل والتثقيف والدربة، لتصبح قادرة على الحكم النقدي، وقد حاول الجرجانيّ، أن يقيد الذوق بالموضوعية، حين نهى صاحبه عن التعصب والهوى، أما عن تعليل حكم الذوق، فذلك ممتنع عنده.

وكان لأصحاب دراسات الإعجاز القرآني ، رأي في قضيّة الذوق ، ومن هؤلاء : الرماني (ت٣٨٤) في رسالته «النكت في أعجاز القرآن » والخطابي (ت٣٨٨هـ) في رسالته « بيان إعجاز القرآن»، والقاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) . في كتابه « المغني في أبواب التوحيد والعدل » :

فالرماني يؤلف رسالته هذه ليبّين وجوه الإعجاز القرآني . وهو يحصر البلاغة في هذه الرسالة في عشرة أقسام هي : الايجاز ، والتشبيه ، والاستعارة والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ، ويرى د . عرفة أن بحث الرماني في البلاغة قد تميز بالعمق بالنسبة إلى السابقين (٢)

---

(١) القاضي الجرجانيّ، الوساطة ٤١٤.

(٢) د. عبد العزيز عرفة ، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر ، ص ٦٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يمضي الرماني في تفسير هذه الأبواب ، مستشهدا لكل جانب بما يناسبه من الآيات القرآنية ، وهو يوازن أحيانا – إن اقتضته الضرورة – بالشعر والكلام المأثور [١] .

وأما عن الذوق عند الرماني ، فلعل الرماني لم يتحدث في الذوق حديثا مباشرا . ولكنه حاول أن يدل وسائل تربية الذوق ، ذلك من خلال تحليلاته وتطبيقاته البلاغية التي جاءت في أبواب رسالته .

ويشير د . عرفة في هذا السياق إلى باب الايجاز [٢]، ليبرز كيف حاول الرماني أن يربي الذوق البلاغي لدى المتلقي من خلال ما جاء به من شواهد . يقول الرماني : « الايجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبر عنه بألفاظ قليلة ، فالألفاظ القليلة ايجاز » [٣] ثم يبين أنواع الايجاز ، ويأتي بشواهد قرآنية عليه ، ثم يقدم مقارنة بين بلاغة القرآن الكريم وبين بلاغة الناس ، ليقف الذوق البلاغي على مواطن التقصير في كلام البشر فيتحقق الإعجاز في كلام الله ، ويمثل للقرآن بقوله تعالى: (ولكم في الحياة القصاص حياة) [٤] ويمثل لبلاغة الناس بقولهم : « القتل أنفى للقتل » .

ويرى أن التفاوت يظهر من أربعة أوجه : فالآية الكريمة أكثر في الفائدة ، وأوجزفي العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة [٥] ويقدم الرماني في هذه الاية بالذات نموذجا في التحليل الجمالي ، في حسن التأليف إذ يقول : « وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة ، فهو مدرك بالحس ، وموجود في لفظ الآية » فإن الخروج من الفاء إلى اللام في الآية أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة في قولهم ؛ لبعد الهمزة من اللام ،

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، مقدمة المحققين ، ص ١٦

(٢) الرماني ، النكت ، ص ٧٠ .

(٣) المكان نفسه .

(٤) القرة الآية ١٧٩ .

(٥) انظر : النكت ، ص ٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء في الآية أعدل من الخروج من الألف إلى اللام في قولهم . ويقول:« فباجتماع هذه الأمور التي ذكرناها ، صارت الآية أبلغ منه وأحسن ، وإن كان قولهم بليغاً حسناً» (١) .

ويذهب الرماني إلى إبراز جمال التشبيه من خلال الشواهد القرآنية ، من ذلك قوله تعالى : (إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض) (٢) ، يقول الرماني : « وهذا بيان قد أخرج ما لم تَجْرِ به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمع (المشبه) والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقير وأن طالت مدته ، وصغير وإن كبر قدره » (٣)

وكذلك في باب الاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، وغيرها من أبواب رسالته ، نجد الرماني يقدم نماذج تطبيقية تنم عن ذوقه ، وتساعد على تربية الذوق . ويرى د . عرفة أن الرماني قد أضاف أضافات جديدة في الأبواب التي ذكرها ، وحدد بعضها تحديدا نهائيا ، وبرزت الصورة البيانية عنده في مرحلة صباها (٤)

وأما عن تعليل حلم الذوق ، فقد حاول الرماني أن يقدم تعليلا لأحكامه الذوقية ، يقف على قوله تعالي : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها) (٥) قائلا :« كأنه قيل : حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير ، وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان » (٦)

وهكذا يحاول الرماني أن يطبق مفهوم الذوق في البلاغة دون الإشارة إليه نظريا ، ويحاول أن يعلل أحكامه الذوقية .

---

(١) النكت ٧٢ ، وانظر د. عرفة ، ص ٦٩ وما بعدها .

(٢) يونس ، الآية ٢٤

(٣) النكت ، ص ٧٧ .

(٤) د. عبد العزيز عرفة ، تربية الذوق ، ص ٧٨ .

(٥) الزمر ، الآية ٧٣ .

(٦) النكت ، ص ٧٠ – ٧١ ، وانظر د. عرفة ، ١٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) ممن لهم رأي في قضية الذوق في رسالته «بيان إعجاز القرآن» . والخطابي في رسالته يحاول أن يبين جوانب الإعجاز في القرآن الكريم من خلال دراسته الصيغ والتراكيب القرآنية ووضع اليد على أسباب الجمال فيها من خلال تحكيمه معيار الذوق ، ولعل أول من دعا إلى الذوق البلاغي المعلل [١] ، وتجيء دعوته هذه في أثناء حديثه عن تحديد بلاغة القرآن فيقول : « وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه » [٢] فالخطابي بذلك يحدد مسألة الذوق، من حيث هو وسيلة الإحساس بالجمال في النص القرآني.

ويتلفت الخطابي إلى تعليل حكم الذوق، معتبراً أن الركون إلى عدم البحث عن علة الجمال في النص القراني، ضربا من الجهل والتقليد [٣] ، ويعلي من شأن التعليل باعتباره وسيلة موضوعيّة ، لتحديد الإجاز فيقول : « فأما مَنْ لم يرضَ من المعرفة بظاهر السمعة دون البحث عن باطن العلة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فإنه يقول إن الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام، حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبه كلام، وَتحْصَر الأقوال عن معارضته وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لا بدّ له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف » [٤] .

ويرى الخطابي أن العلة تكون في الكلام نفسه ، وتنبع من داخله ، يقصد بذلك التراكيب السياقية والصيغ . يقول « وقد استقرينا أوصافه الخارجية عنه ، وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئا منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس ، ويطّرد على المعايير ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه ، فدل النظر، وشاهد العبر على

---

(١) د. عبد العزيز عرفة ، ص ١٤٧ .

(٢) الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، ص ٢٢

(٣) انظر بيان إعجاز القرآن ، ص ٢٢ .

(٤) المصدر نفسة ، ص٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن السبب له، والعلة فيه أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية . (١)

وهكذا يمضي الخطابي في دعوته للتعليل – ببسط الفروق البلاغية ، التي تمثل أسس التعليل للحكم الذوقي ، فيقدم نماذج تطبيقية يحللها تحليلا جماليا ، مظهرا مواطن الجمال فيها ، واقفاً على أسباب ذلك الجمال بالتعليل المستقصي للصيغ والتراكيب ، يعلق على قوله تعالى (فأكله الذئب) (٢) فيقول : «فإن الافتراس معناه في فعل السبع القتل حسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وزأضائه ، فلم يترك مفصلا ولا عظما ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه فادعو فيه الأكل ، ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى » (٣)

وما أورده الخطابي من تحليل بعض النصوص تحليلاً فنياً جميلاً، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام (٤) .

وننتهي في هذا التمهيد بالقاضي عبد الجبار الاسد آبادي (ت ٤١٥هـ) . فنجد القاضي عبد الجبار ، يعقد فصلاً في (الوجه الذي له يقع التفاضل في فصاحة الكلام)(٥) ، فيقرر أن فصاحة الكلام لا تكون في الألفاظ المفردة، بل في الألفاظ المجموعة في التركيب وفق العلاقات النحوية . يقول : «اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريقة مخصوصة ، ولا بد من الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم ، وقدتكون بالإعراب الذي له مدخل فيه ، وقد

---

(١) بيان إعجاز القرآن ، ص ٢٣

(٢) يوسف ، الآية ١٧ .

(٣) بيان إعجاز القرآن ، ص ٣٧ .

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، مقدمة المحققين ، ص ١٢ .

(٥) انظر : القاضي عبد الجبار ، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ص ١٩٩ – ٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة من رابع ، لأنه أما أن تعتبر فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بدّ من هذا الاعتبار في كل كلمة ، ثم لا بدّ من اعتبار مثله في الكلمات، إذا انضم بعضها إلى بعض ، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها ، وموقعها ، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه، دونما عداها » (١)

ويلتفت القاضي عبد الجبار إلى حسن النغم ، وعذوبة القول ، ويرى أنها تزيد الكلام حسنا ، ولكنها لا توجد فضلا في الفصاحة .

ولعل القاضي عبد الجبار، يبسط في رؤيته للفصاحة الأساس الذي اتكأ عليه عبدالقاهر الجرجانيّ فيما بعد في نظرية النظم (٢) .

وأما عن الذوق ، فيمكن أن نلحظ أن الحديث عن الفصاحة ، باعتبارها حاصل علاقات التركيب – إنما يمثل وسيلة لتعليل جمال العبارة من خلال تحليل علاقات تركيبها . كما سنلحظ ذلك بشكل واضح عند الجرجانّي .

وبعد، فإذا كان الجمال قيمة شغلت الإنسان حيثما وجدت، وظلت غاية ينشدها الأديب، وينتشي بها المتلقي، وكان سمو الآداب والفنون بعامة، مقيساً بما يكمن فيها من قيم جمالية خالدة – فإنّ الذوق، هو الوسيلة التي يمكن بها إدراك الجمال.

وإذا كانت البلاغة، أحد الأسس التي يتكئ عليها النقد الأدبي، في الكشف عن خصائص التركيب في فن القول لإدراك جمال التعبير – فما مكانة الذوق في درس البلاغة العربية؟

---

(١) القاضي عبد الجبار ، المغني ، ص ١٩٩ .

(٢) انظر : عبد العزيز عرفة ، تربية الذوق البلاغي ، ص ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هل البلاغة العربية جملة من البحوث اللغوية، والقواعد المنطقية التي تصل إلى حد الألغاز في جمودها؟ أم أن للذوق قيمة في إدراك الجمال في البحث البلاغي لا تقل عن قيمة القاعدة؟

هذا ما سندير فيه الحديث في فصول هذه الدراسة، لنتبين مفهوم الذوق في بلاغتنا، فإن صحت فرضية أن الذوق كان أحد المقاييس البلاغية، فسنرى في أيٍ من الوجوه، طبق البلاغيون هذا المقياس؟ وإلى أي مدى كانوا يعوّلون عليه؟ وما الغاية التي أُتخذ الذوق سبيلا إليها؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

مفهوم الذوق عند عبد القاهر الجرجانيّ

(ت ٤٧١ - ٤٧٤هـ)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توطئـــة :

كانت نظرية النظم أهم ما تمخض عنه فكر عبدالقاهر الجرجانيّ، وهو يحاول أن يضع نموذجا علميا لفهم البيان القرآني، والوقوف على القيم الجمالية في فن القول.

وظلت نظرية النظم مصدرا خصبا للدراسات اللغوية والنحوية، والأدبية، والبيانية، (١) كلٌ يبرز جانبا من جوانبها، ويقف على وجه من وجوهها حسب اختصاصه، وهذا يدلل على شمولية النظرية، في معالجة الأبعاد المختلفة لفن القول.

ولسنا بصدد مناقشة الجوانب المختلفة لهذه النظرية في هذا الموضع، ولكنا معنيون بإبراز دورها في تحليل النص الأدبي؛ إذ «يلح عبد القاهر على تحليل النص، فيكشف لنا الفروق بين نظم وآخر، وإدراك هذه الفروق يكون بمعرفة العلاقات الداخلة في النص، والمكونةله ، وماينشأ عنها من لطائف» (٢)؛ فالعلاقات النحوية التي تربط أجزاء النص هي – عند عبد القاهر – علاقات ينشأ عنها الجمال الفني، ولا يمكن الوقوف على القيم الجمالية في الإبداع اللغوي، إلابتفسير هذه العلاقات وفهم دقائقها.

ويذهب د.كمال أبو ديب، إلى أن أهمية نظرية النظم عند الجرجانيّ – تتمثل في محاولة النظرية تفسير القيمة الجمالية في العمل الإبداعي؛ وذلك من خلال تعليل الحكم النقدي.(٣)

ونظرية النظم تظهر إدراك الجرجانيّ لطبيعة الفن بعامة، وفن القول بخاصة؛ نستظهر ذلك من خلال المقايسة التي يقيمها في الفرق بين فن القول ونسج الديباج، يقول

---

(١) درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، وفتحي أحمد عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز (٤٦ – ١٦٠)، ووليد مراد، نظريةالنظم وقيمتها العلمية، عند عبد القاهر الجرجانيّ، (٥٦-١٩٣) ، ود. محمد بركات أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجانيّ، ص ٧٥ – ١١٠ .

(٢) احمد عبد السيد الصّاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجانيّ ص ٩٩ .

(٣) Kamal - Abu dib, Al - Jurjānī's theory of poetic imagery p 25

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبد القاهر الجرجانيّ: «وإنا لنرى أن في الناس من إذا رأى أنه يجري في القياس وضرب المثل – أن تشبه الكلم في ضم بعضها إلى بعض، بضم غزل الابريسم بعضه إلى بعض – ورأى أن الذي ينسج الديباج ويعمل النقش والوشي، لا يصنع بالإبريسم الذي ينسج منه، شيئا غير أن يضم بعضه إلى بعَض، ويتخير للأصبـــاغ المختلفة المواقع التي يعلم أنه إذا أوقعها فيها حدث له في نسجه ما يريد من النقش والصورة، جرى في ظنه أن حال الكلم في ضم بعضها إلى بعض، و في تخير المواقع لها، حال خيوط الابريسم سواء، ورأيت كلامه كلام من لا يعلم أنـــه لا يكون الضم فيها ضما، ولا المـــوقع موقعـــا، حتى يكون قد توخى فيها معاني النحـــو». (١)

ويؤكد الجرجانيّ هذه الفكرة كثيرا (٢)؛ ليبين أن الجمال إنما يكمن في العلاقة بين أجزاء الكلام، لا في مجموع هذه الأجزاء على غير اتفاق، وأن المبدع يقوم بتخير الألفاظ، ثم يقوم بالمواءمة بينها في الصياغة: تقديما أوتأخيرا، حذفا أو ذكرا، بحيث تقوم في النهاية بإيصال الأثر الفني.

ويدرك عبد القاهر أن الصحة النحوية، وسلامة التركيب اللغوي من الخطأ ليسا وحدهما سببا للجمال، إذ إن الفن يجب أن يقوم على التناسب بين أجزاء الصورة الفنية؛ يقول في باب (أخذ الشبه مما يخالفه في الجنس): «وذلك بيّن لك فيما تراه من الصناعات وسائر الأعمال التي تنسب إلى الدقة، فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافا في الشكل والهيئة، ثم كان التلاؤم بينها مع ذلك أتم، والائتلاف أبين، كان شأنها أعجب، والحذق لمصورها أوجب». (٣)

---

(١) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز ، ص ٣٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٦ .

(٣) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص ١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويدرك الجرجانيّ – كذلك – أن الفن يقوم على الايحاء الذي لا يصل حد الإبهام؛ «وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلا، فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له، والهمة في طلبه، وما كان منه ألطف – كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد » (١)

ولكنه – أعني الجرجانيّ – لا يميل إلى التعقيد الذي يفسد الصورة الفنية ، ويذهب بالمعنى ، ويدخل المتلقي في إعنات الفكر، وكد الخاطر، ويبدو ذلك في موقفه من أبي تمام " الذي «.. تجد من تعسفه في اللفظ، وذهابه به في نحو من التركيب لا يهتدي النحو إلى إصلاحه، وإغراب في الترتيب يعمي الإعراب في طريقه ، ويضلّ في تعريفه». (٢)

هذا الفهم لطبيعة النص الأدبي في بعده الفني الذي يقوم على التناسب، والانسجام، والإيحاء –يتلاقى معه ما يقول به النقاد الجماليون المعاصرون (٣)، وهذا يفسر لنا احتفاء الجرجانيّ بالذوق معيارا نقديا في تلمس القيم الجمالية في فن القول.

وأماعلى صعيد دراسة النص وتحليله، فإن الجرجانيّ يتميز بنظرة شمولية؛ فكما أن الأثر الفني يتأتى من علاقات الأجزاء، فإنه لايجوز الحكم على الجزء في معزل عن بقية الأجزاء، إذ تقوم رؤيته على أساس كلي «يستند إلى الذوق والمعرفة بأساليب التعبير المختلفة، ومايتبعها من دلالات إضافية، ثم يعقب ذلك تحليل النص، وتفكيك جزئياته التي تشكلت منه وألفت نصا منظما» (٤) يقول في تعليقه على قطعة أوردها: «المقصود البيت الأخير، ولكن البيت إذا قطع عن القطعة، كان كالكعاب تفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ».(٥)

---

(١) الأسرار ، ص ١٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ١٣٦ .

(٣) ينظر: عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي ص ... وروز غريب ، النقد الجمالي عند العرب ، ص ١٩–٣٠ .

(٤) محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ص ٣٢٨.

(٥) الأسرار، ص ١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الرؤية النظرية :

يأخذ الذوق في آثار الجرجانيّ أهمية خاصة؛ فهو يعقد فصلا في"إدراك البلاغة بالذوق وإحساس النفس" يختم به: "دلائل الإعجاز"، وكذلك يختم الرسالة الشافية بفصل للحديث في الذوق، وأهميته في إدراك وجوه الإعجاز القرآني.(١)

ونظن أن الجرجانيّ حين يجعل الحديث في الذوق خاتمة يذيل بها" الشافية" و"الدلائل" إنما يصدر في ذلك عن إيمانه بأن الذوق هو أهم المعايير النقدية التي تكشف القيمة الفنية في فن القول، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أن الذوق قضية معقدة، لا سبيل إلى تعليمها وتعريفها، وأن القواعد والفروق البلاغية التي بسطها في نظرية النظم – ليست كافية لمعرفة البلاغة، إنما هي الأساس الأولي الذي يجب الوقوف عليه لتربية الذوق وإعلائه.

ويقرر الجرجانيّ في ذيل الشافية: «أن الفصاحة وتمييز الكلام يعتمدان على الذوق، وأن الذوق موهبة فطرية، لا تتأتى لمن لم يوهبها، وأن عدم إدراك الناس لهذه المسألة هو "الداء العياء"، وأن الذي يمكن أن يقدّر الأثر الفني ويميّز رفيعه من ساقطه – هو «من له طبع إذا قدحته وَرِي وقلب إذا أريته رأى،... ، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له، كذلك لا تُفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التي بها يفهم». (٢)

ويعود مرة أخرى، ليؤكد أن الذوق ميزة فردية موهوبة في سياق حديثه، على أن معرفة الفروق البلاغية في النظم – ليست تكفي لتقدير قيمة فن القول؛ لأن هذه المزايا فيها خفاء روحاني، لا ينكشف إلا لمن أوتي ذوقا نافذا. يقول: «...، فليس الداء فيه بالهين، ولا هو بحيث إذا رمت العلاج منه وجدت الإمكان فيه مع كل أحد مسعفا، والسعي منجحا؛ لأن المزايا التي

---

(١) الدلائل، ص ٥٤٦ – ٥٥٧ ، والشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ١٥٧ – ١٥٨

(٢) الدلائل، ص ٥٤٩ ، والشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحتاج أن تعلمهم مكانها، وتصور لهم شأنها أمورخفية ومعان روحانية أنت لا تستطيع أن تنبه السامع لها، وتحدث له علما بها، حتى يكون مهيئاً لإدراكها، وتكون فيه طبيعة قابلة لها، ويكون له ذوق وقريحة، يجد لهما في نفسه إحساسا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة، ومن إذا تصفح الكلام وتدبر الشعر، فرق بين موقع شيء منها وشيء» (١)

ويثير الجرجانيّ قضية مهمة؛ هي قلة من يتمتعون بالذوق الفني «أن هذا الإحساس قليل في الناس، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه في شعر يقوله، أو رسالة يكتبها الموقع الحسن، ثم لا يعلم أنه قد أحسن». (٢)

إن حديث الجرجانيّ على الوجه الذي تقدم – هو عرض لمفهوم الذوق من الناحية النظرية التجريدية، ولما كانت المفاهيم المجردة ليست ذات قيمة في منهج الجرجانيّ، فهو يحاول أن يقرب المفهوم تقريبا ماديا تطبيقيا، من خلال ظاهرة بلاغية هي ظاهرة (التنكير)؛ فيعرض كيف يكون التنكير مزية بلاغية يقضى لها بالحسن في موضع، وغير خليقة بالاستحسان في مواضع أخرى، بحسب السياق الذي ترد فيه، «فإذا رأوا التنكير يكون فيما لايحصى من المواضع ثم لا يقتضي فضلا ولا يوجب مزية، اتهمونا في دعوانا ما ادعيناه لتنكير الحياة في قوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة) (٣) من أن له حسنا ومزية، وأن فيه بلاغة عجيبة، وظنوه وهماً منّا وتخيلاً » (٤).

---

(١) الدلائل ، ٥٤٧.

(٢) المصدر نفسه ، ٥٤٩.

(٣) سورة البقرة، ص ١٧٩.

(٤) الدلائل، ص ٥٤٧، وأنظر المصدر نفسه ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يمثل بأبيات مختلفة(١) للبحتري، وأبي نواس، وإسماعيل بن يسار، ورد فيها التنكير؛ ليؤكد أن صاحب الذوق إذا تدبر هذا الشعر أدرك ما فيه من تفاوت في الحسن، وإذا سمع هذه الأبيات «أنق لها، وأخذته الأريحية عندها». (٢)

ونلاحظ، أن الجرجانيّ يميل في رؤيته مفهوم الذوق إلى الانطباعية الذاتية التي تحكم على فن القول من خلال الأثر العام الذي يصاحب المتلقي في استقباله للرسالة الفنية، ويبدو ذلك واضحا من النص السابق، و من تعليقات الجرجانيّ وتعقيباته على النماذج التي أوردها في الدلائل وفي الأسرار بخاصة.

وتعقيبات الجرجانيّ هذه – تتلخص في مجموعة من الألفاظ التي لا تحمل دلالات نقدية أو بلاغية، ولكنها تحمل سمة انطباعية خالصة من مثل: الأريحية، والروعة، والفخامة، والنبل، والبهجة، والحسن.

هذا، إلى جانب العبارات ذات الدلالات الإنطباعية التأثيرية ؛ من مثل: «...، نبا عنه الطبع، وأنكرته النفس» (٣) «وهذا موضع لطيف، لا تنتصف منه إلاّ باستعانة الطبع عليه» (٤).

غير أن الجرجانيّ لا يسلّم للذوق بهذه الانطباعية على الإطلاق؛ فيضع المعرفة الواسعة بفروق النظم في خدمة الذوق؛ لتعليله وتفسيره وتوجيهه، كما سنرى لاحقا.

وقد حظي موقف الجرجانيّ هذا بعناية الباحثين المعاصرين؛ فذهب غير باحث ممن درسوا عبد القاهر إلى عدّه ناقدا جماليا، انطباعيا وموضوعيا عقلانيا في آن معا، وخلصوا إلى أنه ليس ثمة تناقض في وصف الجرجانيّ بذلك؛ فهو جمالي انطباعي في إعلائه شأن

---

(١) الدلائل ، ص ٥٤٨ .

(٢)المصدر نفسه، ص ٥٤٨ .

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤٨ .

(٤) الأسرار، ص ٣٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذوق وتعويله عليه في تقدير الأثر الفني، وهو موضوعي عقلاني في تعليل حكم الذوق، وفي التحليل والتفسير، واستقصاء علل الجمال، وإدراك أسراره في فن القول (١)

ويلتفت الجرجانيّ في حديثه عن الذوق إلى اختلاف الأذواق بين الناس، ويعزو ذلك إلى أن العلوم ذات القوانين المضبوطة يظل الاختلاف في قضاياها قائما، فكيف بالذوق ؟! وهو مسألة فنية فردية معقّدة. يقول: «وإذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة، وقوانين مضبوطة، قد اشترك الناس في العلم بها، واتفقوا على أن البناء عليها ، إذا أخطأ فيها المخطئ ، ثم أعجب برأيه ، لم تستطع ردّه عن هواه، وصرفه عن الرأي الذي رآه ، إلاّ بعد الجهد، وإلاّ بعد أن يكون حصيفاً عاقلاً ثَبِتا، إذا نُبّه انتبه، وإذا قيل: إن عليك بقيةً من نظر، وقف وأصغى، ... فكيف بأن ترد الناس عن رأيهم في هذا الشأن، وأصلك الذي تردهم إليه وتعّول في محاجَّتهم عليه استشهاد القرائح، وسبرالنفوس وفليها، وما يعرض فيها من الأريحية عندماتسمع». (٢)

فالاختلاف في شأن الذوق قائم، وهذا يعني: أن معيارالذوق معيار مَرِن، قابل للنظر والمعاودة، سواءً أكان ذلك على مستوى العلماء أم غيرهم من الناس، وقد يختلف الذوق عند الرجل نفسه من حين إلى حين، ويعلل الجرجانيّ ذلك، بأن الذوق من الأمور الخفية الغامضة؛ إذ «لم يكن الأمر على هذه الجملة؛ إلاّ لأنه ليس في أصناف العلوم الخفية، والأمور الغامضة الدقيقة، أعجب طريقا في الخفاء من هذا، وأنك لتتعب في الشيء نفسك، وتكد فيه فكرك، وتجهد فيه كل جهدك، حتى إذا قلت: قد قتلته علما، وأحكمته فهماً، كنت بالذي لا يزال يتراءى لك فيه من شبهة، ويعرض فيه من شك». (٣).

(١) أنظر: احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٤٣٤ وعبد الكريم السالم ، عبد القاهر في أسرار البلاغة، ص ٣٤٦ ومحمد بركات أبو علي ، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر، ص ٧٥ ، وأحمد مطلوب ، عبد القاهر الجرجانيّ : بلاغته ونقده، ص ٢٠٧ ، وبدوي طبانه ، البيان العربي، ص ١٩٥

(٢) الدلائل، ص٥٥. وانظر: الشافية، ص ١٥٧ – ١٥٨.

(٣) الدلائل، ص ٥٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما دام أمر الذوق على هذه الدرجة من الخفاء والغموض، وعلى هذا القدر من الاشتباه وعدم التثبّت، – فثمة مجال للخطأ في الأحكام الذوقية؛ إذ ربما يستحسن المتلقي أثراً أدبياً؛ لصورة أعجبته، أو معنىً طريفٍ راقه، ويخفى عنه خطأ ما في النظم أو اللغة. وربما ينفر المرء من ظاهرة بلاغية، وهو لا يدرك قيمتها في ذلك السياق.

لذلك ، يذهب الجرجانيّ إلى استقصاء أخطاء العلماء في هذا الجانب، ويقدّم لذلك بقوله : «وإنك لتنظر في البيت دهراً طويلا، وتفسّره، ولا ترى أن فيه شيئا لم تعلمه، ثم يبدو لك فيه أمر خفي، لم تكن قد علمته». (١)

ويمثل الجرجانيّ بنفسه، مع بيت المتنبي:

عجبا له ! حفظ العنان بأنْملٍ ما حفظها الأشياءَ من عاداتها

يقول: «مضى الدهر الطويل ونحن نقرؤه، فلا ننكر منه شيئا، ولا يقع لنا أن فيه خطأً، ثم بان بآخرة أنه قد أخطأ» (٢)

ويعلل الجرجاني خطأ المتنبي بقوله: «وذلك أنه كان ينبغي أن يقول ما حفظ الأشياء من عاداتها، فيضيف المصدر إلى المعقول، فلا يذكر الفاعل؛ ذلك لأن المعنى على أنه ينفي الحفظ عن أنامله جملة، وأنه زعم أنه لا يكون مننها أصلاً، وإضافة الحفظ إلى ضميرها في قوله: "ما حفظها الأشياء يقتضي أن يكون قد أثبت لها حفظاً». (٣)

وينبه الجرجانيّ في هذا السياق، على أن خطأ العلماء في الأحكام الذوقية هو أخطر مايكون ؛ لأن الناس يأخذون عنهم هذه الأحكام اتّباعا، على غير ارتياب أو شك.(٤)

---

(١) الدلائل، ص ٥٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٥١ ، ٥٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مقابل ذلك ، يسوق الجرجانيّ شواهد على استهجان بعضهم بعضَ الظواهر البلاغية في فن القول، حين لا يدركون القيمة البيانية لورودها في سياق ما؛ من ذلك: «ما ذكره الجاحظ : من أن سائلا سئل عن قول قيس بن خارجة: عندي قرى كل نازل، ورضى كل ساخط، وخطبة من لَدُنْ تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع فقال: أليس الأمر بالصلة هو النهى عن التقاطع؟ قال: فقال أبو يعقوب (١): أمَا علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الافصاح والتكشيف». (٢)

ونستجلي من ذلك، أن الجرجانيّ يؤكد دور الذوق في استكشاف قيمة العلاقات في التركيب اللغوي؛ فالخطأ في التركيب يفسد جمال النص، كما أن قصور الذوق عن إدراك قيمة ظاهرة ما – كما في نص الجاحظ – يدفع إلى إصدار حكمٍ غير صحيح.

---

(١) ابو يعقوب هو: إسحق بن حسان بن قوهي الخزيمي. أنظر: حاشية الدلائل، بتحقيق محمود شاكر، ص ١٦٩ .

(٢) الدلائل، ص ٥٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التعليل :

كان الجرجانيّ أول من أضاف جديدا إلى قضية الذوق، حين رفض أن يقف النقاد عند حد اطلاق الأحكام الجمالية، دون تعليل، وقال: إن الذوق إذا حكم على كلام بالحسن، فإن هذا الحكم يجب أن يعلل، أما التسليم بحكم الذوق غير المعلل فيقود إلى الاختلاف، والاتهام بسوء الاستنباط وفساد الذوق. (١)

ويدرك الجرجانيّ ابتداءً، أن أمر التعليل ليس بالسهل، وإنّما يحتاج إلى فطنة ومعرفة إلى جانب الذوق، وينتقد ما درجت عليه لغة النقد من غموض، وما درج عليه النقاد من الوقوف عند منطقة الذوق غير المعلل، أو التمحّل في تأويلات غير مناسبة.

ويرى الجرجانيّ في هذا المقام، أن القصد إلى التعليل «مرام صعب، ومطلب عسير، ولولا أنه على ذلك، لما وجدت الناس بين منكر له من أصله، ومتحيِّل له على غير وجهه ومعتقد أنه باب لا تقوى عليه العبارة، ولا يملك فيه إلا الإشارة، وأن طريق التعليم إليه مسدود، وباب التفهيم دونه مغلق، وأن معانيك فيه معانٍ تأبى أن تبرز من الضمير، وأن تدين للتبيين والتصوير، وأن تُرى سافرة لا نقاب عليها، وبادية لا حجاب دونها ،وأن ليس للواصف لها إلاّ أن يلوِّح ويشير، أو يضرب مثلا ينبئ عن حسن قد عرفه على الجملة، وفضيلة قد أحسها من غير أن يتبع ذلك بيانا، ويقيم عليه برهانا، ويذكر له علة، ويورد فيه حجة». (٢)

وقد يؤخذ على الباحث إيراد مثل هذا النص الطويل؛ غير أن هذا النص يشخِّص ما عليه واقع البلاغة الذي يرفضه الجرجانيّ، ويفسر رؤيته لأهمية التعليل في مثل هذه الحال.

---

(١) د. محمود السمرة، القاضي الجرجانيّ، ص ١٥٧.

(٢) الدلائل، ص ٦٤ – ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلتزم الجرجانيّ في تقديم الطريقة التي تؤصل منهج التعليل شيئا من التأني والتدريج فيقول: «وأنا أُنزل لك القول في ذلك ، وأدرِّجه شيئاً فشيئاً». (١)

وعلى الرُغم من معرفة الجرجانيّ بهذه المشكلة العويصة، فإنه لا يتردد في حماسته لتأكيد أن لكل جمال سببا، وأن علة الجمال موجودة في النص نفسه، ومهمة البلاغة تكمن في اكتشاف هذه العلل، يقول: «وجملة ما أردت ان أُبيّنه لك: أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة». (٢)

لذلك ، نجد الجرجانيّ يعاود الحديث في النظم، والفروق البلاغية، وما جرى به العرف والعـادة (٣) ؛ لتكون معارف أساسية، يستعين بها الناقد في تعليل أحكامه، وتفسير قبوله أو رفضه للعمل الأدبي.

فهذه المعرفة عُدّة الناقد والبليغ؛ ذلك لمعرفة الخطأ من الصواب، ومعرفة المفاضلة بين الأشياء المتفقة في صفة الصحة والحسن؛ «وجملة الأمر أنك لن تعلم في شيء من الصناعات علما تمر فيه وتحلى، حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب، ويفصل بين الإساءة والإحسان، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان، وتعرف طبقات المحسنين». (٤)

على أن معرفة الخطأ من الصواب ليست تعليلا للجمال، والصحة وحدها – كما مر سابقا – ليست سببا للجمال، بل لا بد من تفسير التفاوت بين الأشياء الجميلة؛ وذلك بالتحليل المستقصي، والتفصيل المستوعِب لمختلف الدقائق والجزئيات؛ لأنه «لا يكفي في علم الفصاحة

---

(١) الدلائل، ص ٦٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

(٣) انظر المصدر نفسه، ص: ٥٣، ٢٦١، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٩٢ ، ٣٠٩، ٣١٨، ٣٨٥، ٤٣٧ ، ٤٥٥، ٥٠٨، وكذلك أسرار البلاغة ، ٦٨ ، ٢١٢، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٨١، ٢٧٣، ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٤) الدلائل، ص ٦٤ – ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تنصب لها ـ قياسا ما وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولا مرسلا، بل لاتكون من معرفتها في شيء – حتى تفصّل القول فيها وتحصل وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدة واحدة، وتسميَها شيئاً فشيئاً». (١)

ويحاول الجرجانيّ أن يقدم أسبابا تعليلية لأحكام درج الناس على الأخذ بها دون تفسير ؛ فجاءت تعليلات الجرجانيّ تلك، على شكل ملاحظات عابرة وإرشادات سريعة في تقديمه بعضَ الشواهد.

يقول في باب التقديم والتأخير : «هو باب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفْترُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ، ولطف عندك – أن قُدم فيه شيء وحُول اللفظ عن مكان إلى مكان». (٢)

فالجرجانيّ ينبه على ميزة التقديم كيف تكون علة للحسن في الشعر أحيانا، وأن بعض الناس يقع لهم هذا الحسن، ثم لا يدركون أنه بسبب من التقديم.

ويقدم لأحد الفصول في حديثه عن اللفظ والنظم، بالتنبيه على أهمية هذا الباب، ومنزلته في جمال الكلام.يقول: "واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد له قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه، بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلا، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجّبته عجب وإذا نبهته لموضع المزية انتبه"(٣)

---

(١) الدلائل، ص ٦٤ – ٦٥.

(٢) الدلائل، ص ١٠٦.

(٣) الدلائل، ص ٢٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينبه في موضع آخر – على أن التناسب يكون سببا في جمال الكناية؛ " وكما أن من شأن الكناية الواقعة في نفس الصفة أن تجيء على صور مختلفة، كذلك من شأنها إذا وقعت في طريق إثبات الصفة، ان تجيء على هذا الحد، ثم يكون في ذلك ما يتناسب، كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها" (١)

ومع محاولة الجرجانيّ أن يرشد إلى المعرفة التي تعين على التعليل والتفسير، فإنه يدرك أن ليس ثمة ضوابط محددة لذلك، وتظل مهارة الذوق المدرب هي التي تقدر ذلك، يقول في "باب الفرق بين التشبيه والاستعارة": «واعلم أن هذه الأمورالتي قصدت البحث عنها أمور كأنهامعروفة مجهولة؛ وذلك أنها معروفة على الجملة، لا ينكر قيامها في نفوس العارفين نوق الكلام، والمتمهرين في فصل جيده من رديئه، ومجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجري مجرى القوانين التي يرجع إليها فتستخرج منها العلل في حسن ما استحسن، وقبح ما استهجن». (٢)

وليس تكلف التأويلات والتفسيرات على غير معرفة دقيقة – بأقل خطرا من عدم التعليل؛ لأن في ذلك مفسدة للذوق، وإساءة إلى الجمال كما أن التكلف في التعليل والتأويل يفارق طبيعة الإبداع، ويكون ضرره أكبر من نفعه، – هذا في مجال الأدب، فكيف إذا كان على صعيد النص القرآني الذي يتصدى الجرجانيّ لمدارسة أسرار بلاغته، ودلائل إعجازه ؟!

لذلك، يحذّر الجرجانيّ بصراحة وتشدد من الوقوع في هذا الغلط – إذ يقول: «وليس من حقك أن تتكلف هذا في كل موضع ، فإنه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى، وينبو عنه طبع الشعر، وقد يتعاطاه من يخالطه شيء من طباع التعمق، فتجد ما يفسد أكثر مما يصلح». (٣)

---

(١) الدلائل، ص ٣٠٨ .

(٢) الأسرار، ص ٢٣٩.

(٣) الأسرار، ص ٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن، أيكون تفسير الأثر الجمالي ممكنا دائما؟ وما موقف الجرجانيّ حين يتعذر على الناقد أن يشخّص علة الجمال في موضع من المواضع؟!

إن الجرجانيّ يؤمن بضرورة التعليل كما أسلفنا، ويدرك إلى جانب ذلك أن التفسير يتعذر أحيانا، وحينئذ، ينبغ على الناقد أن لا ينثني عن المحاولة، ويركن إلى العجز، وخمول الذهن ؛ إذ «ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر في الكل». (١)

وكثيرا ما وقف الجرجانيّ نفسه حائراً في تعليل بعض الأحكام الجمالية، فكان يلجأ إلى الاعتذار عن ذلك بعبارات الدهشة والتأثر من مثل: «وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأديته حقه، والمعول فيه على مراجعة النفس» (٢) وكذلك قوله: «واعلم أن من الباطل والمحال، ما يعلم الإنسان بطلانه، واستحالته بالرجوع إلى النفس، حتى لا يشك، ثم إنه إذا أراد بيان ما في نفسه، والدلالة عليه، رأى المسلك إليه يغمض ويَدِق». (٣)

لقد كان لوقوف الجرجانيّ عند تعليل الذوق أكبرالأثر في تقدم الدراسة البلاغية والنقدية ؛إذ إنه أدخل البحث البلاغي في طور التأليف المنهجي الذي يتجاوز مرحلة الملحوظات العابرة، ويتخذ من التعليل والتفسير والتحليل منهجا في نقد النصوص، والوقوف على القيم الجمالية فيها. (٤)

ولقد سبق القول فيما ذهب إليه الباحثون المعاصرون، من موضوعية الجرجانيّ في نظرته إلى الجمال ؛ بتحكيمه معيار الذوق المعلل.

ولسنا في حاجة هنا إلى أن نؤكد أن موضوعية الجرجانيّ لم تتجل في بحثه عن العلة وحسب، بل في «محاولته أن يضع قواعد تحكم اطراد الظاهرة الجمالية، فلا يصح أن يكون سبب الجمال سببا في موضع، وغير سبب في موضع». (٥)

(١) الدلائل، ص ٢٥٤.

(٢) الدلائل، ص ٢٠٠.

(٣) نفسه، ص ٣٨٦.

(٤) أنظر : عبدالكريم السالم ، عبدالقاهر في أسرار البلاغة، ص٣١١.

(٥) أحمد الصاوي ، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجانيّ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحتى يتحقق اطّراد الظاهرة الجمالية، لا بد من مقايسة المتشابهات إذا تحققت ثمة صلة بينهما، وذلك بمعرفة العلة؛ فمعرفة علة الجمال في موضع تعيننا على تفسيره في مواضع أخرى إذا تشابهت العلل، يقول الجرجانيّ: «وإذا كان الشيء متعلقا بغيره، ومقيسا على ما سواه، كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام، وتقريره في النفوس أن يوضع له مثال، يكشف عن وجهه، ويؤنس به، ويكون زماما عليه، يمسكه على المتفهم له، والطالب علمه». (١)

ونتساءل، لم يصر الجرجانيّ على هذه المقايسة؟ وهل ثمة سبب آخر؟ نقدر أن الجرجانيّ كان ينزع إلى تقريب مراد الله من أفهام الناس، ويحاول أن يستكشف السر الذي يرقى بالعبارة القرآنية إلى حد الإعجاز، فيتخذ مما ألفه العرب من فن القول وسيلة للتحليل، حتى إذا ما بلغ المتلقي غاية من التفهم والتذوق والمعرفة، استطاع أن ينظر في العبارة القرآنية نظرة موضوعية علمية، تقوم على التعليل والتفسير وتحليل العبارة ضمن معطيات اللغة، وإمكانات البلاغة.

ولا أرانا نبالغ في ذلك؛ لأن الجرجانيّ نفسه يصرح بذلك، إذ يقول: «وهو باب من العلم، إذ انت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة، ومعان شريفة، ورأيت له أثرا في الدين عظيما، وفائدة جسيمة، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد، فيما يعود إلى التنزيل، وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل، وإنه ليؤمنك من أن تغالط في دعواك، وتدافع عن مغزاك، ويربأ بك عن أن تستبين هدى ثم لا تهدي اليه وتُدِلَّ بعرفان ، ثم لا تستطيع أن تَدُلَّ عليه». (٢)

---

(١) الشافية، ١١٧.

(٢)الدلائل، ص٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التطبيق :

يعد التطبيق جزءا أصيلا في منهج الجرجانيّ؛ فالأفكار النظرية ليست بذات قيمة إذا لم يشفعها تطبيق يظهر قدرتها على تحليل النص، واستشراف قيمه الجمالية؛ ذلك لأن البلاغة كما يراها الجرجانيّ، وسيلة للوقوف على أسرار فن القول من خلال التحليل.

ولسنا بصدد دراسة نماذج الجرجانيّ التطبيقية من حيث جنسها الأدبي ومصادرها ؛ فلقد عُنيت دراسة متخصصة بهذه القضية (١). بيد أنّا نحاول أن نقف على طريقة الجرجانيّ في تحليل الأنموذج الأدبي، من خلال مقاييسه البلاغية، ونحاول أن نستجلي كيف استطاع أن يحكّم الذوق معيارا نقديا في الوقوف على أسرار فن القول، وقيمه الجمالية وكيف حاول أن يفسر أحكامه ويعللها؟

ولا بد لنا قبل ذلك أن نعرض بعض الأحكام المهمة التي يراها الباحثون في منهج عبدالقاهر في تحليل النص الأدبي.

يذهب سيد قطب إلى اعتبارالجرجانيّ صاحب منهج فني في تحليله للنص الأدبي، والمنهج الفني – كما يراه قطب – هو«أن نواجه الأثر الفني بالقواعد، والأصول الفنية المباشرة» (٢)

ويقرر قطب: «أن المنهج الفني يعتمد أولا على التأثر الذاتي للناقد، ولكنه يعتمد ثانيا على عناصر موضوعية، وعلى أصول فنية لها حظ من الاستقرار ؛ فهو منهج ذاتي موضوعي، وهو أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب». (٣)

---

(١) أنظر: محمد بركات أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر، ١١٣ – ١٤٧ .

(٢) سيد قطب، النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، ص ١٢٩.

(٣) المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويضيف قطب: «لقد حاول الجرجانيّ أن يضع قواعد فنية للبلاغة والجمال الفني» (١)، ونلحظ، أن قطب يشير ضمنا – هنا – إلى معيار الذوق عند الجرجانيّ في بعده الوظيفي التطبيقي، في دراسة الأثر الفني وتقييمه، وتفسير أحكامه النقدية.

وأما عن الجانب التطبيقيّ لمفهوم الذوق، فان كتاب أسرار البلاغة يعتبر مصدرا تطبيقيا لرؤية الجرجانيّ البلاغيّة في التحليل والذوق، في الوقت الذي نراه يفرغ جهده للتحديد النظريّ لمفهوم الذوق وأهميته في «دلائل الاعجاز» (٢) و«الشافية».

ويمكن القول: إن كتاب أسرار البلاغة يحفل بحس فني مرهف، ويقدم الجرجانيّ فيه نماذج تطبيقية تجلّي ذوقه، وقدرته على التحليل الأدبيّ، والبيانيّ، الذي يستخلص عناصرالتأثيرالجمالي من داخل النص.

ولا ندري لماذا يذهب مندور إلى الحكم على «أسرار البلاغة» بأنه أقرب إلى الفلسفة النظرية منه إلى النقد الأدبي، (٣) وكأنّ مندور ينعى على الجرجانيّ قصده إلى استقصاء العلل، والبحث عن الأسباب الموضوعية التي تقف وراء الجمال في النص الأدبي، سواء أكانت هذه الأسباب متصلة باللغة، أم بالتركيب، أم بالدلالة في أبعادها: النفسية، والاجتماعية، والتراثية؟!

وسنرى لاحقا، أن استقصاء الجرجانيّ للعلة في أثناء تطبيقاته، كان له مايسوّغه؛ ذلك أنه كان يحاول أن يقرب منهجه في الذوق لدارسي الأدب فكان يلجأ إلى الإسهاب في تعليل الحكم بكل سبيل ممكنة، ولعل ذلك ما حدا بمندور إلى نعت (أسرار البلاغة) بهذا الوصف.

---

(١) سيد قطب النقد الأدبي، أصوله ومناهجه، ص ١٢٩ .

(٢) انظر، عبد الكريم السالم، عبدالقاهر في أسرار البلاغة، ص ٣٣٩.

(٣) محمد مندور، في الميزان الجديد، ص ١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظل السؤال في منهج الجرجانيّ التطبيقي لمفهوم الذوق قائما، فما طريقة الجرجانيّ في تطبيقه، وهل استطاع أن ينهض بتحليلٍ وتطبيقٍ يرقى إلى مستوى مفهومه النظري الذي دعا إليه؟

يقرر الجرجانيّ: أن على الناقد أن يتجاوز حد العلم بالشئ على الجملة؛ إذ لا بد أن يتناول الجزئيات مفصلة، ثم يبحث عن أثر ذلك في المتلقي، يقول:« واعلم أنك لا تشفي العلة، ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز العلم به مجملا، إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء وعرف منبعه، وانتهى في البحث إلى عروق الشجر الذي هو منه». (١)

فالوقوف على حالة الأثر العام للنص غير كاف، بل لا بد أن ندرك قيمة كل جزء في إحداث هذا الأثر..

ويدرك الجرجانيّ البعد النفسي لأثر الفن على المتلقي، فيؤكد هذه الحقيقة، ويرشد إلى طريقة التذوق الفني الناجح إذ يقول: «إن الجملة أسبق إلى النفوس من التفصيل، وإنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل، ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر، وهكذا الحكم في السمع، وغيره من الحواس» (٢) ، وينبّه على أن المسألة بالنسبة إلى تذوق الفن لا تختلف عن الحواس إذ يقول: «وإذا كانت هذه العبرة ثابتة في المشاهدة وما يجري مجراها مما تناله الحاسة، فالأمر في القلب كذلك، تجد الجمل أبدا هي التي تسبق إلى الأوهام وتقع في الخاطر أولا، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال للرويّة واستعانة بالتذكر». (٣)

---

(١) الدلائل، ص ٢٠٠.

(٢) الأسرار، ١٤٧.

(٣) المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويغلب على طريقة الجرجانيّ في إطلاق أحكامه الذوقية – أن يبدأ بتقديم الحكم بالجودة، والاستحسان ، ووصف الأثر الجمالي، وما يلقيه من دهشة في نفس المتلقي، ثم يبدأ بعد ذلك بتحليل الأجزاء وبيان قيمتها في تحقيق الأثر الجمالي تعليلا لحكمه المتقدم.

ويعتمد في ذلك على إثارة المتلقي، وحفزه على التأمل والتذوق والمراجعة. وربما ينطلق الجرجانيّ في تطبيقاته من نصوص مألوفة، ومحكوم لها بالجودة؛ ليدرّب المتلقي على تأصيل منهج في تذوق النص، وتقييمه، يقول: "وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما تواصفوه بالحسن ؛ وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا، دون غيره مما يستحسن له الشعر، أوغير الشعر من معنى لطيف، أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك، مما لا يدخل في النظم – وتأمّله، فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحية ممَ كانت، وعند ماذا ظهرت؟ فإنك ترى عيانا أن الذي قلت لك كما قلت» (١)

ثم يمثل الجرجانيّ بأبيات البحتري:

بلونا ضرائب من قد نرى ... فما إن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت له الحادثا (م) ت عزماً وشيكاً ورأياً صليبا

تنقّل في خُلُقي: سؤدد ... سماحاً مرجّى، وبأساً مهيبا

فكالسيف إنْ جئته صارخاً، ... وكالبحر إن جئته مستثيبا

ويعقب قائلا: « فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك، فعد فانظر في السبب، واستقص في النظر، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قَدّم وأخر،

---

(١) الدلائل، ص ٨٤ ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعرّف ونكّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو، فاصاب في ذلك كله، ثم لَطُفَ موضع صوابه، وأتى مأتى يوجب الفضيلة». (١)

ثم يبدأ الجرجانيّ باستقصاء المَيْزة التي أوجبت الحكم باستحسان هذه الأبيات ؛ فيقول:"«هو المرء أبدت له الحادثات»، ثم قوله: « تنقل في خلقي سؤددٍ» بتنكير « السؤدد» وإضافة «الخلقين » إليه، ثم قوله: «فكالسيف» وعطفه بالفاء مع حذف المبتدأ؛ لأن المعنى لا محالة: فهو كالسيف، ثم تكريره «الكاف» في قوله: «وكالبحر»، ثم أن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر؛ وذلك قوله: «صارخا» هناك ، «ومستثيبا» ههنا». (٢)

ففي النموذج المتقدم، يطرح الجرجانيّ حكما شائعا لاستحسان الذوق هذه الأبيات، ويؤكد هذا الحكم بإبراز المتعة النفسيّة التي تصاحب المتلقي في أثناء قراءته هذه الأبيات، ثم يبدأ باستقصاء علة ما في الأبيات من جمال، والتي تكمن في جملة الفروق البلاغيّة التي ذكرها، وردّها إلى النّظم وتوخي وجه من الترتيب النحوي الذي أوجب لها الفضيلة، والحسن.

وفي إطار النظم، يذهب الجرجانيّ إلى تحليلات كثيرة في الدلائل، يتخذ منها شواهد تطبيقية علي الأبواب التي عقدها. من مثل: الحذف والذكر، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير؛ وهو يحكّم ذوقه الناقد؛ ويرد أسباب الجمال في هذه الشواهد إلى ما فيها من تلك الفروق.

---

(١) الدلائل، ص ٨٥

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقف الجرجانيّ في تطبيقاته الذوقية على المفارقة في المعنى، ويحاول أن يفسّر كيف تثير هذه المفارقة قوة الإعجاب والاستحسان لدى المتلقي، وتكون علة للحسن متى وقع؛ يقول في باب التمثيل : «وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر، في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بُعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمُعرِق، وهو يريك المعاني الممثلة بالأوهام شبها في الأشخاص الماثلة» (١)، ثم يذكر في إثر هذا النصّ نماذج شعريّة تقوم على خاصية التضاد في المعاني؛ ليظهر أن هذه الخاصيّة تكون مصدرا لقيم جمالية في فن القول.

وأما عن شموليّة منهج الجرجانيّ في التطبيق، فلقد لاحظ ذلك غير باحث معاصر، ويرون أنّه في بحثه وتحليله وتطبيقه، ينطلق أساسا من الكلام التامّ، والنصوص المنظومة، وليس من المفردات، والأجزاء المعزولة، (٢)

والواقع إن الجرجانيّ يقف عند شموليّة الأثر الفنيّ؛ ليؤكد أنّ الذوق لا يسوّغ التقاف المعنى العارض غير المرتبط بما قبله وبما بعده، فحتى يتحقق عمق التأثير، لا بدّ من النظر في النصّ كاملا، وهذا يعني أنّ وَحدة الأثر تتأتى من ترابط الأجزاء يقول: «وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح، أغناك ذاك عن الفكرة، إذا كان المعنى لطيفا، فإنّ المعانيَ الشريفة اللطيفة، لا بدّ فيها من بناء ثانٍ على أوّل، وردّ تالٍ إلى سابق، أفلست تحتاج في الوقوف على الغرض، من قوله: « كالبدر أفرط في العلو» إلى أن تعرف البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه، ووجه المجاز في كونه دانياً شاسعاً، وترقم ذلك في قلبك، ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى، وتردّ البصر من هذه إلى تلك، وتنظر إليه كيف

---

(١) الاسرار، ص ص ١١٨-١٢٠ .

(٢) انظر: أحمد أبو زقيّة، المبادئ الأساسية للسانيات العامة، ص ٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شرط في العلوّ الإفراط ليشاكل قوله «شاسع»؛ لأن الشسوع هو الشديد من البعد، ثم قابله بما لا يشاكله، من مراعاة التناهي في القرب فقال: جدّ قريب». (١)

ومن التطبيقات التي تستوقف الباحث، عند الجرجانيّ- تعقيبه على أبيات ابن المعتز، إذ يستقصي غرابة العلّة التي جعلها الشاعر لبكاء العين في قوله:

عـاتبت عـيني بالدمع والسـهـر إذ غـار قلبي عليك من بصـري

واحـتـملت ذاك وهي رابحـة فـيك، وفـازت بلذة النظر

يقول الجرجانيّ: « وذاك أنّ العادة في دمع العين وسهرها أن يكون السبب فيه إعراض الحبيب، أو اعتراض الرّقيب، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب، وقد ترك ذلك كلّه -كما ترى- وادعى أنّ العلة لما ذكره من غيرة القلب منها على الحبيب، وايثاره أن يتفرد برؤيته، فجعل ذلك أن أبكاها، ومنعها من النوم، وحماها » (٢)

ونلحظ: أن الجرجانيّ في هذا المقام، يفسّر جمال المعنى في هذين البيتين، بانحراف الشاعر عما هو مألوف في بكاء العين، وجعله بكاءها لغير ما تعورف عليه عند الشعراء. وهذا استقصاء دقيق لعلة الجمال، تتجاوز طبيعة التركيب اللغويّ، إلى تعقب المعنى الشعريّ.

وأما على صعيد النص القرآني، فلقد تقدم القول في أن غاية الجرجاني كانت ايجاد الوسائل والدلائل للوقوف على أسرار الإعجاز (٣). ومن هنا، جاءت تطبيقاته القرآنية ممثلة لهذه الغاية.

بيد أن الباحث في آثار عبدالقاهر، يلحظ أن استشهاده بالقرآن جاء قليلا بالنسبة إلى استشهاداته الشعرية، ويعلل د. أبوعلي هذه الظاهرة، (٤) بأن الجرجانيّ لم يقصد أن يقدم

---

(١) الأسرار، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٣) انظر« محمد بركات » أبو علي، معالم المنهج البلاغي ص، ١٨ ، ٣٨.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٨ ، ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دراسة في تفسير القرآن، إنما هو يضع قواعد ومقاييس لدراسة النص القرآني، فكان لا بد أن يقدم هذه المقاييس من خلال ما هو مألوف لدى الناس من فن الشعر.

ولنا أن نقدم نموذجاً من تطبيقات الجرجانيّ القرآنية لنرى كيف استطاع أن يطبق مقياس الذوق، في الوقوف على ما فيهما من تأثير وجمال. وهذا النموذج عرضه الجرجانيّ في باب (التمثيل)؛ ذلك ليبين كيف تختلط عناصر المشابهة في التمثيل؛ لتكون الحال الحاصلة من اجتماع العناصر بعضها مع بعض في المشبه والمشبه به هي المقصودة بالمقارنة لا العناصر مفردة في أنفسها.

يقول الجرجانيّ في الشبه العقلي المنتزع من جملة أمور: «وربما انتزع من عدة أمور يُجمع بعضها إلى بعض، ثم يستخرج من مجموعها الشبه؛ فيكون سبيله سبيل الشيئين يُمزج أحدهما بالآخر، حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد، لا سبيل الشيئين يُجمع بينهما وتُحفظ صورتهما. ومثال ذلك قوله عزّ وجلّ: "مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا"(١)» . (٢)

يعلق الجرجانيّ قائلا:« الشبه منتزع من أحوال الحمار؛ وهو أنهّ يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحسّ بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شئ ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظ سوى أنّه يثقل عليه، ويكدّ جنبيه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء أُلّفت وقرن بعضها إلى بعض». (٣)

ويحاول الجرجانيّ- بعد أن بيّن حدود الصورة-أن يعلل سبب تأثيرها الجماليّ، وعلة حسنها كيف جاءت؟ فيقول: «بيان ذلك: انّه احتيج إلى أن يُراعى من الحمار فعلٌ مخصوص

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٥.

(٢) الأسرار، ص ٩٠ – ٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٠ – ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو الحمل، وأن يكون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار التي فيها أمارات تدلّ على العلوم، وأن يُثلث ذلك بجهل الحمار ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود. ثم إنه لا يحصل من كل واحدٍ من هذه الأمور على الانفراد، ولا يُتصور أن يقال: إنه تشبيه بعد تشبيه من غير أن يقف الأول على الثاني، ويدخل الثاني في الأول، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار، ثمّ لا يتعلق ايضاً بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأسفار، ثم لا يتعلق بهذا كلّه حتى يقترن به جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره». (١)

إنّ مثل هذا التحليل، يجئ عند الجرجانيّ لاظهار تأثير الصورة في النفس؛ فهو يوضّح الأجزاء التي تركبت منها مفردات هذا التشبيه على نحو دقيق يصلح أن يكون نموذجا يحتذيه الناظر في النصّ القرآني، نظرة جمالية، أساسها الذوق، وعدّتها المعرفة بعلاقات اللغة.

مما سلف، نستبين أن الجرجانيّ كان صاحب نظرة نقديّة عميقة، حين دعا إلى اعتبار الذوق أداة رئيسة من أدوات البحث البلاغيّ؛ فشرح رؤيته هذه شرحا مستوعِبا، وهو ينبّه على أهمية الذوق ووظيفته في كشف أسرار فن القول، ويتجلى تميّز الجرجانيّ، في رفضه أن يكون حكم الذوق غير معلل، فدعا إلى التعليل، معتبرا المعرفة الشاملة وسيلة لتعليل حكم الذوق، وراح يبسط شواهد تطبيقيّة تُعين على تعلّم طريقة التذوّق الفنيّ.

---

(١) الأسرار، ص ٩٠ – ٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجرجانيّ في كل هذا، يحاول أن يثبت أنّ أمر الإعجاز القرآنيّ إنّما هو قائم في نصّ القرآن نفسه، بنية لغويّةً، ودلالاتٍ، وأنّ البلاغة يمكن أن تنهض بتفسير حقيقة الإعجاز في هذه الحدود، إذا توافر للبلاغيّ الذوق السليم والمعرفة بالنظم.

وإذا كان الجرجاني لم يحاول أن يقدم نظريّة في النقد أو البلاغة أو التفسير- فإنّ ما جاء به في مفهوم الذوق يمثل نظريّة جمالية ناضجة ذات أبعاد تطبيقيّة على صعيد النقد الجمالي- ما دامت البلاغة أداة من أدوات النقد ؛ ووسيلة من وسائله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

مفهوم الذوق عند:
(١) الزمخشريّ (تـ ٥٣٨ هـ)
(٢) الفخر الرازي (تـ ٦٠٦هـ)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوم الذوق عند الزمخشري:

لعلَّ أهم آثار الزمخشري هو تفسيره (الكشاف) إذ يعدُّ أول تفسير بياني جمالي يستغرق القرآن الكريم كاملاً.

وعلى ما في الكشاف من فكر اعتزالي يمثل صاحبه، (١) فإن ذلك لن يستوقفنا؛ لأننا معنيون بهذا التفسير بقدر ما يمكن أن يضيء جانباً من مفهوم الذوق في تاريخ الفكر البلاغيّ العربيّ.

عُني الزمخشري بقضيّة إعجاز القرآن الكريم، وبات يؤمن أن التفاسير النقليّة، قد تصلح لبيان أحكام القرآن الدينيّة، لكنها عاجزة عن تفسير سرِّ الإعجاز وبيان القيم الجمالية، التي جعلت من النصّ القرآنيّ نصّاً معجزاً.

ويقرر الزمخشري في مقدمة الكشاف، أن علم المعاني وعلم البيان، هما وسيلة إدراك الجمال في النصّ القرآني، إذ يقول «ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وانهضها بما يبهر الألباب القوارح؛ من غرائب نكتٍ يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها؛ علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن؛ فالفقيه وإن برَّز على الأقران في علم الفتاوي والأحكام، والمتكلم وإن بزَّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصصْ والأخبار وإن كان من ابن القِريَّة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همّة في معرفة لطائف حجة الله،

---

(١) أنظر: مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، ص ١٠٧ . وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات قد رجع زماناً ورُجع إليه، ورد وردّ عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدما في حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادّها، يقظان النفس، دراكاً للمحة وإن لطف شأنها، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها، لا كزا جاسيا، ولا غليظا جافياً، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يُرتبّ الكلام ويؤلف، وكيف يُنظم ويُرصّف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه». (١)

وباستقرائنا النصّ السابق، نلحظ أن الزمخشريّ، يتمثل في فكرة الجرجانيّ: إذ يذهب إلى أن إدراك الجمال الفنيّ، يتطلب ذوقا وإحساساً، لا يتوافران الاّ للخاصة، وأن المعرفة الدقيقة بدقائق النظم تمثّل الأساس الأولي لتربية الذوق الفنيّ.

غير ان الزمخشريّ لم يباشر الحديث في التحديد النظريّ لمفهوم الذوق، ولكنه مارس ذلك ممارسة عمليّة. مقتفيا في ذلك فكرة النظم.

ويمكن القول: «إن الزمخشريّ أول من طبق رأي عبد القاهر الجماليّ في إعجاز القرآن، تطبيقاًعملياً، وعلى نطاق واسع يشمل سور القرآن جميعها». (٢)

---

(١) الزمشخريّ، الكشاف، ص (ن – ص)

(٢) مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشريّ، ص ٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما دام الزمخشريّ لم يتحدث في الذوق، ويجعله معياراً بلاغيّاً يقف به على مواطن الجمال، وأسرار البلاغة في القرآن – فإننا لا نستطيع أن نستبين قيمة الذوق عنده، ووظيفته، إلاّ من خلال تطبيقاته.

يجمع الزمخشري في تفسيره الفروق البلاغيّة في معاني النحو وعلم البيان، من من مثل: التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والقصر، والمعاني المجازيّة لأساليب الإنشاء. وكذلك في علم المعاني، إذ إنه وظّف مفهوم الاستعارة والمجاز، في تحليل النص القرآني، غير أن هذه المفاهيم جاءت مبعثرة في ثنايا تفسيره؛ إذ لم يقصد أنّ يؤلف في البلاغة، ولكنه وظّف الفروق البلاغيّة، للكشف عن القيم الجماليّة في النصّ القرآنيّ، ويرى د. شوقي ضيف، أن طرافة الزمخشريّ تتجلى في عرضه هذه المفاهيم، مقرونة بالمثال الذي يوضحها ويكشف عن دقائقها.(١)

ولعلَّ تقديم المفهوم البلاغيّ من خلال النماذج اللغويّة المتفوقة، والتي تجيء في طبيعيّة غير متكلفة، إنما هو دليل على ذوق الزمخشريّ، وفهمه لحقيقة البلاغة ووظيفتها.

ويمكن لنا أن نقف على ذوق الزمشخريّ من خلال نماذج من تفسيره: يقول في تفسير قوله تعالى (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، هنَّ لباس لكم، وأنتم لباسٌ لهن، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم، فتاب عليكم، وعفا عنكم فالآن باشروهنَّ، وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد، تلك حدودالله، فلا تقربوها، كذلك يبين الله آية للناس لعلهم يتقون). (٢)

---

(١) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص ٢٦٥.

(٢) البقرة، الآية ١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتجلى ذوق الزمخشريّ في تفسيره هذه الآية، - فيما نقدّر - بذهابه إلى التفريق بين (الرفث) و (المباشرة) في استخدام الآية للفظتين في المعنى نفسه، إذ يقول: «... فإذا قلت لِمَ كنّى عنه ههنا بلفظ الرفث الدال على القبح بخلاف قوله:(وقد أفضى بعضكم إلى بعض) ،(فلما تغشاها)، (باشروهن)، (أو لامستم النساء) ، (دخلتم بهن) ، (فأتوا حرثكم) ، (من قبل أن تمسّوهن) ،(فما استمعتم به منهن) ، (ولا تقربوهن)؟ قلت: استهجاناً؛ لما وجد منهم قبل الإباحة» (١)، فالزمخشريّ يعلل استخدام لفظة (الرفث) في هذا الموضع لتوحي ببشاعة اتيان الفعل قبل إباحته، وأما بعد إباحته، فقد استخدمت الآية لفظاً هادئاً يوحي بالطمأنينة والوثوق، ويأتي بجملة الاستخدامات القرآنيّة لهذا المعنى، ليأخذ كلٌ خصوصيّته في سياقه التعبيريّ.

ويوضح الجرجانيّ جمال التصوير في قوله تعالى: {هن لباس لكم، وأنتم لباس لهنَّ} بقوله: «لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، ويشتمل كل منهما على صاحبه في عناقه، شبه باللباس المشتمل عليه» (٢)، ويبرز الزمخشريّ كيف اتخذت الآية من هذا التصوير الذي يتضمن معنى (الملابسة) علّةً إذ يقول: «فإن قلت ما موقع (هنَّ لباس لكم)؟ قلت: استئناف كالبياني لسبب الإحلال، وهو أنّه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة، قل صبركم عنهن، وصعب عليكم اجتنابهنّ» (٣).

ويستطرد الزمخشريّ في مثل هذا التحليل الجمالي بقية أجزاء الآية؛ ليضع المتلقي على إيحاءات التصوير القرآنيّ لاستخدامه لفظة (الرفث) مرة، ولفظة المباشرة مرة أخرى، والتشبيه الذي ينعكس طرفاه في جملتين متساويتين، ويربطهما بقضيّة المنع والإباحة، والعبادة وهوى النفس الغريزيّ.

---

(١) الكشاف جـ١، ٢٣٠.

(٢) المكان نفسه.

(٣) نفسه، ص ٢٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجعل الزمخشريّ من العلاقات النحويّة علاقات جماليّة، فيحلّلها، مبرزاً ما في التركيب من جمال نشأ بسبب هذه العلاقات، فحين يجيء إلى تفسير قوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) (١) يقول: «فما معنى الإخبار عنهنّ بالتربص»؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام، وليتربص المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر، تأكيد للأمر وإشعارٌ بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهنّ امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً ...، وبناؤه على المبتدأ فما زاده ايضاً فضل تأكيده، ولو قيل يتربص المطلقات، لم يكن بتلك الوكادة». (٢)

أما عن الأساليب الشائعة في الاستخدام اللغويّ، والتي تخرج إلى معانٍ بلاغيّة، فإن الزمخشريّ لا يغفل ذلك. ونجد على ذلك مثلاً من سورة الفاتحة، إذ يعرض الجمال الذي تحقق من الالتفات في قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) يقول: «فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالفتات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) (٣) وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلك بالأثمد ونام الخليّ ولم ترقد

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمدِ

وذلك من نبأ جاءني وخُبّرتُه عن أبي الأسود

---

(١) البقرة، الآية ٢٢٨.

(٢) الكشاف جـ١، ص ٢٤٠.

(٣) يونس، الآية ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختُص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية في الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا مَنْ هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به. فإن قلت: لم قرنت الاستعانة بالعبادة؟ قلت: ليجمع بين ما يقترب به العباد إلى ربهم، وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته. فإن قلت: فلم قُدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها. فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: ليتناول كل مستعان فيه، والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة، ويكون قوله: (اهدِنا) بيانا للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدِنا الصراط المستقيم، وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض». (١)

ولم يفت الزمخشريَّ الالتفات إلى المحسنات البديعيّة ما دامت ظواهر بلاغيّة تتردد في القرآن الكريم، وتكون لها سماتها الجماليّة، وآثارها في التصوير فيذكر الجناس في قوله تعالى: (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) (٢)، ويعلق قائلاً: «من سبأ بنبأ من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعاً، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة، فحسن وبدع لفظاً ومعنىً، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ (بخبر) لكان المعنى

---

(١) الكشاف جـ١، ص ١٤ - ١٥.

(٢) النمل، الآية ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صحيحاً، وهو كما جاء أصح، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال» (١)، ويعلق على قوله تعالى: (يا أسفي على يوسف) (٢) «والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمل، فيملُح ويبدُع، ونحوه: (اثّاقلتم إلى الأرض ارضيتهم) (٣) ، (وهم ينهـون عنه وينأون عنه) (٤)،»(٥)

من خلال نماذج الزمخشريّ السابقة نلحظ أن الزمخشريّ قد اتخذ من الذوق وسيلة لدراسة النص القرآنيّ دراسة جماليّة، ونجد عمله في (الكشاف) مكملاً لعمل الجرجانيّ في (الدلائل) و (الأسرار) و (الشافية).

فنظريّة الجرجانيّ في النظم، والإلحاح على توظيف الذوق في الكشف عن جماليات فن القول، والدلائل التي ساقها وهو يقدّم أنموذجه البلاغيّ الذي يصلح لمدارسة حقيقة الإعجاز، قد تمثلت ناضجةً في عمل الزمخشري.

ونعتقد أن عمل الزمخشريّ هذا، قد أكد الروح الأدبيّة للبلاغة العربيّة، التي تقوم على الذوق وتجعل من الذوق معياراً داتياً موضوعيّاً في آن معاً.

ويذهب أحمد مطلوب إلى اعتبار عمل الزمخشري خاتمة الدراسات البلاغيّة الأصيلة، وزبدة البحوث الجليلة (٦)؛ لتدخل البلاغة بعد ذلك مرحلة أخرى كما سنرى.

---

(١) الكشاف جـ٢، ص ١٤٢.

(٢) يوسف، الآية ٨٤.

(٣) التوبة، الآية ٣٨.

(٤) الأنعام، الآية ٢٦.

(٥) الكشاف جـ١، ص ٤٨٤.

(٦) أحمد مطلوب، مناهج بلاغيّة، ص ٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوم الذوق عند الرازي:

بدأت البلاغة على يدي فخر الدين الرازي بداية جديدة، تفارق ما ألفته عند البلاغيين السابقين، والنقاد.

ولعلَّ كتاب نهاية الإيجاز للرازي، يمثل أول المؤلفات البلاغيّة التي فارقت الذوق، والنظرة الأدبيّة، واتجهت بالبحث البلاغيّ إلى المنطق والتعقيد والفلسفة. (١)

ويبدو أن الرازي حاول في مؤلفه هذا أن يقدّم البلاغة العربيّة في إطار منظم؛ ليقرب قواعدها ومناهجها للناس، إحساساً منه أن المصطلح البلاغيّ يتوارى في ثنايا كتب السابقين، لا سيّما الجرجانيّ.

فهو يذكر الجرجانيّ في مقدمة كتابه، ويعتبره واضع علم البلاغة، ويكبر جهده إكبار التلميذ لاستاذه؛ يقول: «...، واستمر الناس في هذا الوسواس إلى أن وفقَّ الله تعالى الإمام مجد الاسلام عبدالقاهر بن عبد الرحمن الجرجانيّ تغمده الله برحمته، وأفاض عليه فنون مغفرته، حتى استخرج أصول هذا العلم وقوانينه، ورتبّ حججه وبراهينه، وبالغ في الكشف عن حقائقه، والفحص عن لطائفة ودقائقه، وصنّف في ذلك كتابين: لقّب أحدهما بدلائل الإعجاز، والثاني بأسرار البلاغة، وجمع فيهما من القواعد الغريبة، والدقائق العجيبة والوجوه العقلية، والشواهد النقليّة، واللطائف الأدبية، والمباحث العربيّة ما لا يوجد في كلام مَنْ قبله من المتقدمين، ولم يصل إليها غيره أحدٌ من العلماء الراسخين». (٢)

---

(١) أحمد مطلوب، مناهج بلاغيّة، ص ٢٤٤، وأنظر: ماهر هلال، فخر الدين الرازي بلاغيًا، ص ٩.

(٢) الرازي، نهاية الايجاز في دراية الإعجاز، ص ٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير أن الرازي – على الرغم من هذا التقدير لجهد الجرجانيّ – يأخذ عليه إهماله ترتيب الأبواب والأصول؛ إذ يستطرد قائلا: «لكنه – رحمه الله – لكونه مستخرجاً لأصول هذا العلم وأقسامه، وشرائطه وأحكامه – أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب، وأطنب في الكلام كل الأطناب». (١)

ويطرح الرازي في هذا الإطار منهجه في الاستدراك على الجرجانيّ، موضحا أن عمله في هذا الكتاب لا يتجاوز إعادة صياغة القواعد البلاغيّة. فيضيف قائلا: «...، ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين، التقطت منهما معاقد فوائدهما، ومقاصد فرائدهما، وراعيت الترتيب مع التهذيب، والتحرير مع التقرير، وضبطت أوابد الإجمالات في كل بابٍ بالتقسيمات اليقينيّة، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقليّة، مع الاجتناب عن الاطناب الممل، والاحتراز عن الاختصار المملّ». (٢)

ونلحظ من مقدمة الرازي لكتابه، أنّه معنيّ بتقنين المصطلح، لمادة الجرجانيّ، وأنَّ غايته في ذلك هي خدمة قضيّة الاعجاز القرآني.

وواضح في ذلك نزعة الرازي العقليّة، التي تبرز عقلية ذكيّة، كما يصفها شوقي ضيف إذ يقول: «وهو يمتاز في مؤلفاته بدقة التفكير وحدة المنطق، والقدرة على تشعيب المسائل، وتفريعها وحصر أقسامها حصراً يحيط إحاطة تامة، واتجه بهذه الطريقة في التأليف إلى البلاغة باعتبارها مدار الإعجاز القرآني، فألف فيها مصنفه (نهاية الايجاز في دراية الاعجاز)، والكتاب تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر، في صورة تنضبط فيها القواعد البلاغيّة وتنحصر فروعها وأقسامها حصراً دقيقاً» (٣)

---

(١) الرازي، نهاية الايجاز في دراية الإعجاز، ص ٢٨.

(٢) المكان نفسه.

(١) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنَّ ذكاء الرازي كان على حساب ذوقه البلاغيّ، ونستطيع أن نتناول بعض المواضع التي اختصرها الرازي في سبيل التقنين. فإذا نظرنا في الآية التي أوردها الجرجانيّ في باب (التمثيل): (مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها، كمثل الحمار يحمل اسفارا)، نلحظ أن الجرجانيّ يبرز لنا كيف تختلط عناصر المشابهة في التمثيل، لتكون الحال الحاصلة من اجتماع العناصر بعضها ببعض في المشبه والمشبه به هي المقصودة بالمقارنة، لا العناصر المفردة. (١)

يعرض الرازي هذه الآية؛ فيضعها في الفصل الخامس من كتابه (في تقسيم ما به المشابهة إلى المفرد والمركب) ويعلق قائلا: «فإنه تضمن الشبه من اليهود، لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل المطلق، بل لأمرين آخرين مع ذلك، أحدهما تعدية الأسفار، والآخر اقتران من أتعب نفسه في حمل ما يتضمن المنافع العظيمة ثم لا ينتفع به، وهذا المقصود غير حاصل من الحمل المطلق بل من الحمل المشروط بالأمرين الآخرين». (٢)

إن المقارنة بين تحليل الجرجانيّ، وعرض الرازي لهذه الآية تظهر أن اختصار الرازي كان غايته الاستشهاد على موضع التمثيل، في الوقت الذي رأينا فيه الجرجانيّ، يستغرق الآية بالتحليل النحوي؛ ليصل في النهاية إلى قيمة التمثيل وحقيقته. ونرى أن الرازي قد فارق ذوق الجرجانيّ كثيراً، حين اختصر هذا التحليل.

ويمضي الرازي في منهجه هذا من الاختصار وضبط القواعد وتحديد الأصول؛ لينقل البلاغة من مرحلة التحليل الجمالي الذوقي، إلى حصرها في حدود المصطلح، وهو في ذلك ينزع منزعاً دينيا يتمثل في محاولته تقنين نواحي الإعجاز في مؤلفه، وينزع كذلك منزعاً تعليمياً في تيسير سبل الدرس البلاغيّ.

---

(١) الأسرار، ٩٠ – ٩١.

(٢) نهاية الإيجاز، ص ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك في كتابه نهاية الايجاز، فكيف وقف الرازي من آيات القرآن الكريم في تفسيره الذي سمّاه (التفسير الكبير)، هل غلبت عليه النزعة المنطقية التي سادت كتابه نهاية الايجاز؟ وهل أفاد من منهج الجرجانيّ في النظر في النصّ القرآني، من خلال نظريّة النظم؟

وحتى نستجلي ذلك، نتناول نماذج من تفسيره، ونبدأ بسورة الفاتحة، وتفسيره للآية (ربِّ العالمين)، يقول: «وأما قوله جل جلاله (ربِّ العالمين) فأعلم أن قوله (رب) وقوله {العالمين} مضاف ومضاف إليه، وإضافة الشيء إلى الشيء تمتنع معرفتها إلا بعد حصول العلم بالمتضايفين، فمن المحال حصول العلم بكونه تعالى رباً للعالمين، بعد معرفة رب والعالمين، ثم إن العالمين عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، وهي على ثلاثة أقسام: المتحيزات، والمفارقات، والصفات، أما المتحيزات فهي إما بسائط أو مركبات، أما البسائط فهي الأفلاك والكواكب والأمهات، وأما المركبات فهي المواليد الثلاثة، وأعلم أنه لم يقم دليل على أنه لا قسم إلا هذه الأقسام الثلاثة، وذلك لأنه ثبت بالدليل أنه حصل خارج العالم خلاء لا نهاية له، وثبت بالدليل أنه تعالى قادر على جميع الممكنات، فهو تعالى قادر على أن يخلق ألف ألف عالم خارج العالم، بحيث يكون كل واحد من تلك العوالم أعظم وأجسم من هذا العالم، ويحصل في كل واحد منها ما حصل في هذا العالم من العرش والكرسي والسموات والأرضين والشمس والقمر، ودلائل الفلاسفة في إثبات أن العالم واحد دلائل ضعيفة ركيكة مبنية على مقدمات واهية؛ قال أبو العلاء المعري:

يا أيها الناس كم لله من فلك ... تجري النجوم به والشمس والقمر

هين على الله ما ضينا وغابرنا ... فما لنا في نواحي غيره خطر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعلوم أن البحث عن هذه الأقسام التي ذكرناها للمتحيزات مشتمل على ألوف من المسائل، بل الإنسان لو ترك الكل وأراد أن يحيط علمه بعجائب المعادن المتولدة في أرجاء الجبال، من الفلزات والأحجار الصافية وأنواع الكباريت والزرانيخ والأملاح، وأن يعرف عجائب أحوال النبات مع ما فيها من الأزهار والأنوار والثمار، وعجائب أقسام الحيوانات من البهائم والوحوش والطيور والحشرات – لنفد عمره في أقل من القليل من هذه المطالب، ولا ينتهي إلى غورها كما قال تعالى:(ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (١) وهي بأسرها وأجمعها داخلة تحت قوله: (رب العالمين)». (٢)

من خلال النصّ السابق، نلحظ أن الرازي، يبدأ بالتعريف بالمضاف والمضاف إليه، ويقرر أن الإضافة تمتنع الاّ إذا تحقق العلم بالمتضايفين، ثم يُعمل المنطق في التعريف بالعالمين، فيذكر الأقسام الفلسفيّة لذلك وهي: المتحيّزات، والمفارقات، والصفات، ويبدأ بمناقشة وحدة العالم عند الفلاسفة.

ولعل الناظر في هذا النصّ، يدرك بغير جهد سيادة النزعة المنطقية على هذا التفسير، وفي تفسيره قولَه تعالى:(إنَّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة) (٣)، يقول: «إن كل صفة تثبت للعبد مما تختص بالأجسام، فإذا وُصف الله بذلك، فذلك محمول على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض، مثاله أن الحياة حالة تحصل للانسان، لكنَّ لها مبتدأ ومنتهى، أما المبتدأ فهو التغيّر الجسمانيّ الذي يلحق الإنسان، من خوف أن ينسب إلى

---

(١) لقمان، الآية ٢٧.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، جـ١، ص ٦ ، ٧.

(٣) البقرة، الآية ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القبيح، وأما النهاية فهو أن يترك الإنسان ذلك بالفعل، فإذا ورد الحياء في حق الله فليس المراد منه، ذلك الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته، بل ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته، وكذلك الغضب، له علامة ومقدمة، وهي غليان دم القلب، وشهوة الانتقام. وله غاية وهو انزال العقاب بالمغضوب عليه، فإذا وصفنا الله تعالى بالغضب فليس المراد ذلك المبدأ؛ أعني شهوة الانتقام وغليان دم القلب، بل المراد تلك النهاية، وهو انزال العقاب، فهذا هو القانون الكلي في هذا الباب». (١)

وما قيل في الآية السابقة، يمكن أن يقال في هذه الآية كذلك، من نزوع التفسير إلى الأقوال المنطقيّة – في قوله:«فذلك محمول على نهايات الأغراض، لا على بدايات الأغراض، وفي قوله: «وهذا هو القانون الكليّ في هذا الباب». على أنَّ الرازي في هذا التفسير يبدي لفتة طريفة في معنى الغضب، وكأن يمكن أن تخرج هذه اللفتة إلى تحليل جماليّ، لو أنّه ترك لذوقه الانطلاق في تفسير علاقات النظم، وجمال التصوير في هذه الآية المبنيّة على الصورة.

نسوق على تفسيرات الرازي مثلاً آخر، هو قوله تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم) (٢)، يقول الرازي: «إعلم أنّه تعالى لما بيّن في الآية الأولى أنهم لا يؤمنون، أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا، وهو الختم، والكلام ههنا يقع في مسائل» (٣)، ثم يذكر المسألة الأولى فيقول: «الختم والكتم إخوان؛ لأن في الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه كتما له وتغطية، لئلا يُتوصل إليه، أو يُطلع عليه، والغشاوة الغطاء، (فعالة) من غشاه إذا غطاه، وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة». (٤)

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، جـ١ ص ١٣٢ – ١٣٣.

(٢) البقرة، الآية ٧.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، جـ٢، ص ٤٨.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يذكر في المسألة الثالثة ألفاظ هذه الآية فيقول: «الألفاظ الواردة في القرآن القريبة من معنى الختم هي: الطبع، والكنان، والرَيْن على القلب، والوقر في الآذان، والغشاوة في البصر». (١)

ثم يذكر أن الآيات التي استخدمت هذه الألفاظ وردت على قسمين، الأول: وردت دلالة على حصول هذه الأشياء، والثاني: وردت دلالة على أنه لا مانع البتة (٢)، ويعقب قائلاً: «والقرآن مملوء من هذين القسمين، وصار كل قسم منها متمسكاً لطائفة، فصارت الدلائل السمعية لكونها من الطرفين واقعة في حيّز التعارف، أما الدلائل العقليّة فهي التي سبقت الإشارة إليها، وبالجملة، فهذه المسألة من أعظم المسائل الاسلاميّة وأكثرها شِعباً وأشدها شَغباً». (٣)

ويأتي على المسألة السادسة فيقول: «الفائدة في تكرير الجار في قوله (وعلى سمعهم) أنها لما أعيدت للأسماع كان أدلَّ على شدة الختم في الموضعين». (٤)

وهكذا يمضي الرازي في تفسيره هذه الآية، فيذكر اثنتي عشرة مسألة، يثير فيها قضايا مختلفة، ويفوته أن يعرض لجمال التصوير القرآنيّ في هذه الآية. ولم يشر مجرد إشارة، إلى مصطلح الاستعارة الذي تضمنتّه هذه الآية.

ولعلَّ اللفتة الوحيدة التي يمكن أن نردّها إلى النظم في تفسيره، ما ذكره في المسألة السادسة من تكرر حرف الجر «على» في قوله تعالى: (وعلى سمعهم).

---

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٣) المصدر نفسه، الموضع نفسه.

(٤) التفسير الكبير، جـ٢، ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا كان ما مثّلنا به صفةً غالبة على تفسيره، فهذا يعني أنَّ الرازي لم يُفد من نظريّة عبد القاهر في النظم، وإذا كان قد احتفل بهذه النظريّة؛ فلأنها نظرية نحويّة في أحد أجزائها، ولا يتعامل معها الرازي إلاّ من هذا المنطلق الضيّق. أما أنها نظريّة للتحليل الجماليّ، توَّظف العلاقة النحوية في استشراف الغاية الجمالية التي حققها النظم، فهذا ما لم يأخذ به الرازي ولم يطبّقه في تفسيره.

ونخلص من هذا، إلى أن الرازي لم يستخدم الذوق معياراً بلاغيًا في تفسيره، وإن كانت في التفسير بعض المواضع التي عرض فيها الرازي بعض اللفتات البيانيّة على طريقة الجرجانيّ، (١) فإنها تظل محدودة، لا تصل بحال لتكون صفة غالبة على تفسيره.

---

(١) عرض ماهر هلال بعض الصور البيانية من التفسير في كتابه، أنظر: ماهر هلال، فخر الدين الرازي بلاغياً، ص ٢٣٥ – ٢٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

مفهوم الذوق عند السكاكيّ
(تـ ٦٢٦ هـ)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد اشتهر القسم الثاني من كتاب مفتاح العلوم دون غيره، وتجاهل من جاؤوا بعد السكاكيّ القسمين: الأول والثاني

وأما موضوعات مفتاح العلوم، فيشير إليها السكاكيّ في المقدمة قائلاً: «وجعلت هذا الكتاب في ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، والقسم الثاني في علم النحو، والقسم الثالث في علمي: المعاني والبيان». (١)

والواقع أن السكاكيّ، يقيم كتابه وفق منهجٍ دقيق متماسك؛ فالكتاب يقوم على الربط بين أجزاء فن القول، في مستوياته اللغوية؛ بدءً بالأصوات وانتهاءً بالمستوى البلاغيّ. ويؤكد منهجه هذا في المقدمة إذ يقول: «وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة ما رأيته لا بدَّ منه، وهي عدّة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه، وإنّه لا يتم الاّ بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كشف عنها القناع، وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعمليّ المعاني والبيان، ولقد قضيت – بتوفيق الله – منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحدِّ والاستدلال، لم أر بدّاً من التسمح بهما، وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر، ورأيت صاحب النظم يفتقر إلى علمي: العروض والقوافي ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما». (٢)

---

(١) مفتاح العلوم، السكاكيّ، ص ٣ ، ٤.
(٢) مفتاح العلوم، ص ٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلحظ من ذلك، أن السكاكيّ يؤمن بترابط أجزاء فن القول، فيقدم مؤلفاً متكاملاً يضمُّ هذه الأجزاء جميعاً، ملخّصةً ميسرة، ليسهل على المتعلم الإلمام بها على غير فصلٍ بين هذه الأجزاء المترابطة أصلاً.

غير أن كتاب المفتاح، لم يُشتهرْ منه غير القسم الثالث، وقد قام من جاؤوا بعد السكاكيّ، بتلخيصه، وكتابة الشروح والحواشي عليه. (١)

ويرى أحدالباحثين أنَّ السبب في إهمال مَنْ جاؤوا بعد السكاكيّ للقسم الأول والقسم الثاني من مفتاح العلوم – هو عدم شيوع دراسة النحو قبل الصرف في كتب اللغة التي سبقت السكاكيّ، وأن السكاكيّ، هو أول مَنْ قدّم مباحث الصرف على هذا النحو. (٢)

ويرى د. محمد بركات أبوعلي: أن السكاكيّ «لم يحاول أن يجعل كتاب مفتاح العلوم كتاباً في فنٍ واحد، وهو فنّ البلاغة كما شاع عند أغلب الباحثين، بل نلحظ أنه جعله عرضاً لعلوم العربيّة، وهي: الصرف، والنحو، والمعاني، والبيان والمحسنات اللفظية والمعنويّة، والاستدلال، والعروض والقافية» (٣)، ويضيف: «ولذا لم تكن غاية السكاكيّ التأليف في البلاغة العربيّة، فهذه وجوه حصرها في القسم الثالث من كتابه، وحاول السكاكي أن يتوسع في بعض القضايا التي أوجزها عبد القاهر، باعتبارها وسيلة لا غاية في التأليف البلاغيّ. (٤)

---

(١) بكري الشيخ أمين، البلاغة في ثوبها الجديد، جـ١، ص ٤٨ ، ٣٧.

(٢) عيسى بوفسيو الخبرعند القاهر والسكاكيّ، ص ٣٣.

(٣) د. محمد بركات أبو علي، معالم المنهج البلاغي، ص ٧٧.

(٤) المرجع نفسه، ص ٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يكن من أمر، فإنَّ أثر السكاكيّ في البلاغة العربيّة يظلُّ مميزاً، ويظل للسكاكي أوليّة صياغة البلاغة في شكلها التقعيديّ الناضج، الذي كان أثراً من آثار الرازي في منهجه، كما بيّنا في الفصل السابق من هذه الدراسة، ولا بدَّ لنا في هذا السياق أن نشير إلى ملامح المنهج البلاغيّ عند السكاكي، قبل مناقشة مفهوم الذوق.

السكاكي والمنطق:

لعلّ السمة الغالبة التي انطبعت بها بلاغة السكاكي، هي إخضاع الفكر البلاغي للحدود المنطقيّة الجافة، فقد نظر السكاكيّ إلى البلاغة نظرة فلسفيّة، وقسمها هذا التقسيم، وقد كان للسكاكيّ النصيب الوافر في المنطق والفلسفة، وكان متكلماً من المعتزلة، وكان من أشد البلاغيين ولعاً بتطبيق أساليب الفلسفة والمنطق على كلام العرب. (١)

وأول ما يلاحظ من هذا الأثر ربطه البلاغة بعلم الاستدلال، وقد أشار إلى هذه العلاقة في أول القسم الثالث من المفتاح، وكرر هذه العبارة: «وستقف على هذا في نوع الاستدلال، إذا انتهينا إليه بإذن الله». (٢) وبعد أن أنهى بحث المعاني والبيان والمحسنات، أوثق هذه الصلة وأوضحها بقوله: «وإذا تحققت أنَّ علم المعاني هو معرفة خواص تراكيب الكلام، او معرفة صياغات المعاني؛ ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقَّها بحسب ما يفي به قوة ذكائك، وعندك علم أنَّ مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من

---

(١) أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، ص ٢٤٨.

(٢) مفتاح العلوم، ص ٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جملتها، وشعبة فردة من دوحتها – علمت أنَّ تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان». (١)

وانتهى السكاكيّ بعد ذلك إلى أن وظيفة البلاغة، هي وظيفة الاستدلال، وراح يقرر أنَّ الاستعارة والكناية وغيرها من المصطلحات البلاغيّة ليست سوى أقيسة منطقيّة.

ويتبدى أثر المنطق جليّاً في عمل السكاكيّ في اهتمامه بتحديد المصطلحات، وتقديم تعريفات جامعة مانعة للمفاهيم البلاغيّة. من ذلك تعريفه للمجاز إذ يقول: «وأما المجاز فهو الكلمة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعةٍ عن إرادة معناها في ذلك النوع». (٢) وفسّر هذا التعريف بقوله «وقولي: (بالتحقيق) احتراز أن لا تخرج الاستعارة التي هي من باب المجاز نظراً إلى دعوى استعمالها فيما هي موضوعة له، وقولي: (استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها) احتراز عما إذا اتفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له، لا بالنسبة إلى نوع حقيقتها، كما إذا استعمل صاحب اللغة لفظ (الغائط) مجازاً فيما يَفْضُل عن الإنسان من منهضم متناولاته، أو كما إذا استعار صاحب الحقيقة الشرعيّة الصلاة للدعاء، أو صاحب العرف الدابة للحمار. والمراد بنوع حقيقتها اللغويّة إنْ كانت، أو الشرعيّة أو العرفيّة أي كانت، وقولي (مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع) احتراز عن الكناية، فإنَّ الكناية – كما ستعرف – تستعمل فيراد بها المكنى عنه، فتقع مستعملة في غير ما هي موضوعة له مع أنّا لا نسميها مجازاً لعرائها من هذا القيد». (٣)

---

(١) مفتاح العلومّ ص ٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧١.

(٣) مفتاح العلوم، ص ١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولسنا في حاجةٍ إلى الإشارة إلى أن طريقته في تقسيم مادة الكلام قد بنيت على المنطق ابتداءً. على أن منطق التقسيم من الناحيّة الشموليّة في تصور أجزاء فن القول يعدُّ أمراً مقبولاً، ولعلَّ السكاكيّ كان في التعريفات الجامدة قد جعل البلاغة في قوالب محدّدة، تفتقر إلى المرونة التي يتطلبها الفن.

السكاكي والذوق:

يخيَّل للباحث أول وهلة، أنَّ السكاكي بقسمته البلاغة على الوجهة السالفة – لا يحتفل بالذوق، ولا يتنبه لأهميته وخطره. والواقع أنَّ فهم السكاكيّ لطبيعة الفن بوحدة أجزاء مادته اللغويّة، لا بدَّ أن يصاحبه إدراك لأهمية الذوق في الكشف عن السرِّ الجمالي في فنِّ القول.

لذلك، نجد السكاكيّ يؤكد أهمية الذوق في مواضع متفرقات من تأليفه، عادّاً الذوق وسيلةً للكشف عن الجوانب التي يعجز العلم المقنن عن كشفها. فحين يتحدث عن الأصوات ومخارجها يقول: «وعندي أنَّ الحكم في أنواعها ومخارجها على ما يجده كل أحد مستقيم الطبع، سليم الذوق، إذا راجع نفسه واعتبرها كما ينبغي، وإن كان بخلاف الغير لا مكان التفاوت في الآلات» (١)، ويؤكد ترابط الظاهر اللغوية بجميع أجزائها إذ يقول: «وهو أنَّ اعتبار الأوضاع في الجملة مضبوطة، أدخل في المناسبة من اعتبارها منتشرة، وأعني بالانتشار، ورودها مستأنسة في جميع ما تحتاج إليه في جانب اللفظ من الحروف والنظم والهيئة» (٢)

---

(١) مفتاح العلوم، ص ٦.

(٢) المكان نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واضحٌ من النصّ السابق أن السكاكي يلتفت إلى القيمة الجماليّة في المادة السمعيّة وهي الأصوات، ويخصُّ هنا، الأصوات اللغويّة، فيؤكد أنَّ الضبط الصحيح للصوب هو قيمة جماليّة، ويكون ذلك بإخراج الصوت من مخرجه المحدد، وإعطائه الطاقة التصويتيّة المناسبة لمقامات الحديث، ومناسباته، وأغراضه، شدّةً أو رخاوةً، ارتفاعاً أو انخفاضاً – وتقدير صحة الصوت، ومناسبته، لا يستطيع أن يحكم عليها غير ذي الذوق الصحيح.

وحينما ينتقل السكاكيّ إلى علم المعاني ينبّه على أنَّ صاحب الذوق، هو الذي يستطيع أنْ يتعرف فروق المعاني، ووظيفة كل فرق من هذه الفروق في سياقه، سواءٌ أكان ذلك في معاني الحروف، أم في ظواهر المعاني الأخرى، كالذكر والحذف، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير. يقول السكاكيّ: «وقبل أن نمنح هذه الفنون حقَّها في الذكر، أنبهك على أصلٍ لتكون على ذكر منه، وهو: أنْ ليس من الواجب في صناعة الأدب وإن كان المرجع في أصولها، وتفاريعها إلى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها، في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندةً إلى تحكّمات وضعيّة، واعتبارات إلفيّة، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه، إنْ فاته الذوق هناك إلى أنْ يتكامل له على مهل موجبات هذا الذوق. وكان شيخنا الحاتميّ، ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار، ما دار الفلك الدوار، تغمده الله برضوانه، يحيلنا بحسنٍ كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق، ونحن حينئذ ممن نبغ في عدّة شعب من علم الأدب، وصبغ بها يده، وعانى فيها وكده وكدّه، وها هو الإمام عبد القاهر قدّس الله روحه في دلائل الإعجاز كم يعيد هذا» (١)

(١) مفتاح العلوم، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونلحظ من هذا النصّ، تنبّه السكاكيّ إلى أن مسائل الفن، لا يعّول فيها على العقل وحده، ولا بدَّ من الذوق المدرّب الممارس إلى جانب العقل لتقدير الفن.

ويبدو تأثر السكاكيّ بدعوة الجرجانيّ للذوق في دلائل الإعجاز، ويذكر شيخه وهو يحاول أن يربي فيهم ملكة التذوق، وهو يدلّهم على المواطن اللطيفة في فن القول.

ويؤكد السكاكيّ أهميّة الذوق، كلما وصل موضعاً دقيقاً، لا يستقيم للمرء تفهمه بغير الإحساس والذوق؛ يقول: «وأعلم أني مهدت لك في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهدٍ بناؤها، واعترف لك بكمال الحذق في صناعة البلاغة أبناؤها، ونُهْتُ لك مناهج متى سلكتها، أخذتْ بك عن المجهل المتعسف إلى سواء السبيل، وصرفتك عن الآجن المطروق، إلى النمير الذي هو شفاء الغليل، ونصبتُ لك أعلاماً متى انتحيتها، أعثرتك على ضوالَّ منشودة، وحشدت منها ما ليست عند أحد بمحشوة، ومثلت لك أمثلة متى حَذَوْتَ عليها أمنت العثار في فطان الزلل، وأبت أن تتصرف فيما تثني إليه عنانك يد الخطل، ثمَّ إذا كنت ممن ملك الذوق إلى الطبع، وتصفحت كلام ربِّ العزّة أطلعك على ما يوردك هناك موارد الهزّة، وكشفت لنور بصيرتك عن وجه إعجازه القناع، وفصلت لك ما أجمله إيثار أولئك المصاقع على معارضته القراع، فإنَّ ملاك الأمر في علم المعاني هو الذوق السليم، والطبع المستقيم، فمن لم يرزقها فعليه بعلوم أخر، وإلاّ لم يحظ بما تقدم وما تأخر». (١)

ونستخلص من هذا النصّ قضيتين:الأولى: أنَّ السكاكي يقرر أن الذوق هو عُدّة البليغ، وأن مَنْ لا ذوق له، لا يستطيع أنْ يمارس الدرس البلاغيّ بحال. وأما القضيّة الثانية، فهي أن الذوق وسيلة للكشف عن إعجاز القرآن، واستشراف مواطن الجمال فيه.

---

(١) مفتاح العلوم، ص ١٤٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أنَّ السكاكي قد كرر ربط الذوق بالإعجاز في غير موضع؛ إذ يقول: «... فلا يحتجب عنه شيء من بدائع النكت في مكانها المستخرج للطائف السحر البيانيّ عن معادنها، المستطلع طلع الإعجاز التنزيليّ باستغراق طوقه المالك لزمام الحكم كفاء المتحدين، بعجيب فهمه، وغريب ذوقه فهو الطلبة». (١) ويقول في موضع آخر: «واعلم أنَّ مستودعات فصول هذا الفنّ لا تتضح الاّ باستيراد زناد خاطر وقّاد، ولا تنكشف أسرار جواهرها الاّ لبصيرة طبع نقاد، ولا تضع أزمتها الاّ في يد راكض في حلبتها إلى أنأى مدى؛ باستفراغ طوق متفوق أفاويق استثباتها قوة فهم ومعونة ذوق مودع من لطائف البلاغة، ...، متوسل بذلك أن يتأنق في وجه الإعجاز في التنزيل، طامع من ربّ العزّة الكبرياء في المثوبة الحسنى والفوز عنده يوم النشور بالذخر الأسنى». (٢)

ويدعو السكاكي إلى إعمال الذوق في إدراك جمال الصورة البيانيّة، وينصّ على الصور البيانية في القرآن الكريم بشكل خاص إذ يقول: «وأنَّ هذا الفن (يعني علم المعاني)، فمن لا تلين عريكته، ولا تنقاد قرونته بمجرد استقراء صور منه، وتتبع مظان أخوات لها، وإتعاب النفس بتكرارها، واستيداع الخاطر حفظها وتحصيلها، بل لا بدَّ من ممارسات لهما كثيرة، ومراجعات فيها طويلة، وشدة ذكاء، وصفاء قريحة، وعقلٍ وافر، ومن أتقن الكلام في اعتبارات الاعتبارات، وقف على اعتبارات النفي. وأعلم أنك إذا حذقت في هذا لصدق

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

همتك، واستفرا غ جهدك فيه، أمكنك التسلق به إلى العثور على السبب الذي أنزل ربُّ العزة قرآنه المجيد على هذه المناهج إن شاء الله». (١)

نلحظ من خلال النصوص السابقة، أنَّ السكاكيَّ يربط بين البلاغة وبين الذوق، ويعدُّ الذوق أداة من أدوات البلاغة، ولا يعتبر من يتصدى للبلاغة بغير ذوق بلاغياً.

ويجيء ذكر الذوق عند السكاكي للكشف عن أسرار الإعجاز القرآني، وهو في يذكرنا بالجرجانيّ، والحاحه على الذوق لكشف حقيقة الإعجاز.

ويظل السؤال الملّحُ قائماً، إذا كان السكاكي يدعو إلى الذوق، فهل طبق مفهوم الذوق في تحليلاته البلاغيّة؟

إنَّ واقع الاستقراء للمفتاح يدلل أنَّ دعوة السكاكيّ للذوق، كانت دعوة نظريّة خالصة، إذ إنَّ سيادة النزعة المنطقيّة قد سيطرت على مؤلفه، حتى وسمته بالفلسفة والتعقيد.

ولعلَّ المواضع التي كان السكاكي يُعمل فيها ذوقه بالاختيار أو التحليل، كانت نزعته المنطقية تفسد جمال تحليله، ويتضح ذلك في استشهاده بقوله تعالى: (ربِّ إني وهن العظم مني واستعمل الرأس شيباً) (٢) يقول: «والكلام في تلك اللطائف مفتقر إلى أخذ أصل معنى الكلام، ومرتبته الأولى، ثم النظر في التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن، وفي كم درجة

---

(١) مفتاح العلوم، ص ٨٣.

(١) مريم، الآية ٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يتصل أحد الطرفين بالآخر، فيقول: لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى، يا ربي قد شخت، فإنَّ الشيخوخة مشتملة على ضعف البدن، وشيب الرأس المتعرض لهما، ثم تركت هذه المرتبة لتوخي مزيد التقرير إلى تفصيلها في ضعف بدني، وشاب رأسي، ثم تركت هذه المرتبة الثانية؛ لاشتمالها على التصريح، إلى ثالثة أبلغ وهي الكناية في وهنت عظام بدني لما ستعرف أنَّ الكناية أبلغ من التصريح، ثم لقصد مرتبته رابعة أبلغ في التقرير بنيت الكناية على المبتدأ، فحصل أن وهنت عظام بدني، ثم لقصد خامسة أبلغ أدخلت إن على المبتدأ فحصل أني وهنت عظام بدني، ثم لطلب تقرير أن الواهن هي عظام بدنه قصدت مرتبة سادسة، وهي سلوك طريقي: الاجمال والتفصيل، فحصل أني وهنت العظام من بدني، والذي سبق في تقرير معنى الاجمال والتفصيل – في رب اشرح لي صدري – ينبه عليه ههنا، ثم لطلب مزيدا اختصاص العظام به، قصدت مرتبة سابعة وهي ترك توسيط البدن، فحصل أني وهنت العظام مني، ثم لطلب شمول الوهن العظام فردا فردا قصدت مرتبة ثامنة، وهي ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد، فحصل ما ترى وهو الذي في الآية – إني وهن العظم مني – وهكذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة فسيأتيك أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة فحصل اشتعل شيب رأسي، ثم تركت الى أبلغ وهي اشتعل رأسي شيبا، وكونها شيب رأسي واشتعل رأسي شيبا وزان اشتعل النار في بيتي، واشتعل بيتي نارا والفرق نير، وثانيتهما: الاجمال والتفصيل في طريق التمييز، وثالثهما تنكير شيبا لافادة المبالغة، ثم ترك اشتعل رأسي شيبا لتوخي مزيد التقرير إلى اشتعل الرأس مني شيبا على نحو: وهن العظم مني، ثم ترك لفظ مني لقرينه عطف واشتعل الرأس على وهن العظم مني لمزية مزيد التقرير وهي إيهام حوالة تأديه مفهومه على العقل دون اللفظ». (١)

---

(١) مفتاح العلوم، ص ١٣٧ ، ١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلَّ الناظر في هذا التطبيق، يلحظ قسمة الجرجانيّ هذه الصورة إلى مراتب بعضها فوق بعض؛ ليصل إلى أنّ التمييز في (شيباً) جاء ليعطي صورة بليغة.

وإذا كان السكاكيّ «يفرّق بين معرفة مصطلح الأدب، وتربية الذوق في الإنشاء والتأليف، إذ معرفة أصول العلم، والمصطلح، هي خطوة أولى، تجعلك عالماً بالأصول، وينبغي أن يتلوها خطوة أخرى، وهي الممارسة والتذوق حتى تصبح من أهل الفن» (١) ، فإنه – أعني السكاكي– لم يمارس ذلك عمليا في تطبيقاته.

ونخلص إلى أنَّ السكاكيّ قد ضيّق على البلاغة كثيراً، وخرج بها عن وجهتها الأدبيّة الجماليّة، فابتعدت عن الذوق الأدبي، ومقاييسه في نقد الأدب، وانحصرت دائرتها في الجملة أو الجملتين.

فالمعاني ما هو الاّ بحث في الجملة وتوابعها، وبحث في ربط الجملتين.

والبيـــان ليس الاّ بحثاً في الجملة أو الجملتين أيضاً، وما فيها من تشبيه ومجاز وكناية.(٢)

ويؤكد أحمد مطلوب، أن بحث البلاغة على هذه الصورة أثر من آثار الفلسفة والمنطق، وإنَّ مباحث علم المعاني تقابل بحوث التصورات، وأنَّ مباحث البيان تقابل بحوث التصديقات.(٣)

ويظل كتاب مفتاح العلوم، على الرغم مما أفسد في الذوق البلاغيّ، معلماً بارزاً من معالم البلاغة العربيّة، وحلقة مهمة في تطور سلسة البلاغة من عبد القاهر الجرجانيّ. وحتى عصر السكاكيّ.

---

(١) محمد بركات أبو علي. بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي، ص ٢٨٥.

(٢) أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، ص ١٨٦.

(٣) المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مفهوم الذوق عند ابن الزملكانيّ (ت ٦٥١ هـ)

ظلت آثار عبد القادر القاهر الجرجاني ذات صدى في الفكر البلاغي، ومن أولئك الذين عوّلوا على آثار الجرجاني – ابن الزملكاني (ت ٦٥١هـ) ، فألف كتابيه : « التبيان في علم البيان » و«البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن » .

ونجد الزملكانيّ يحذو حذو الرازي في تلخيص آثار الجرجاني ، غير أنه قد اقتصر على دلائل الإعجاز بشكل خاص ، فأخذه بالضبط والتعقيد والحصر ، ولعل الزملكاني قد أفاد من منهج الرازي والسكاكي في مؤلفه « التبيان » .(١) .

ويشير الزملكانيّ إلى عبد القاهر في دلائل الاعجاز قائلا : «غير أنه واسع الخطو كثيرا ما يكرر الضبط ، فقيد للتبويب ، طريد من الترتيب ، يُمل الناظر ، ويعشي الناظر ، وقد سهل الله تعالى جمع مقاصده وقواعده ، وضبط جوامحه وطوارده مع فرائد سمح بها الخاطر ، وزوائد نقلت من الكتب والدفاتر » .(٢)

والواقع أن ابن الزملكانيّ قد أخذ بفكرة النظم في الكشف عن الإعجاز القرآني عن عبد القاهر ، فهو يتكلم في الجزء الذي سماه (اللواحق) على الاعجاز القرآني ، والجهة التي تحصل منها . ويرى أن الإعجاز راجع إلى توخي علاقات النحو .(٣) ، غير أنه أهمل الإشارة إلى دور الذوق في الكشف عن أسرار الإعجاز كما فعل الجرجاني .

ولكن ابن الزملكاوي ، يمارس بعض التحليلات الجمالية أحيانا ، يقول : «ومما يوقظك

---

(١) ابن الزملكانيّ ، التبيان ، مقدمة المحققين ، ص١٦

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠

(٣) انظر : المصدر نفسة ، ص ١٩٣ ، ١٩٥ ، والبرهان ، ص ٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن الفصاحة لو كانت صفة للفظ فقط ، لأدركها كل سامع لإدراكه اللفظ ، بل لا يدرك ما في بيت بشار من الصنعة ، وهو قوله [من الطويل] :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

إلاّ من أدرك معاني النحو التي يراها فيه ، وذاك أن أوقع (النقع) و(فوق) إلى (رؤوس) وأن عطف (الأسياف) على (مثار) بالواو ، وأن جعل (الليل) صفة ليتم غرضه من التشبيه ، وإذا فكرت في هذا البيت ، وجدته كالحلقة المفرغة التي لا تقبل الانقسام » .(١) ولكن المنعم في هذا التحليل يجده إعادة لنظرة الجرجاني ، والزملكانيّ لا يتجاوز في هذا الموضع حد التقليد .

وقد قدم الزملكاني في هذا كتاب «البرهان» تحليلات كثيرة لآيات القرآن الكريم، وبدا في البرهان أكثر إعمالا لمفهوم الذوق منه في «التبيان» .

ويتضح ميل الزملكاني للتعليل الجمالي في عنوانات أبوابه مثل ٠ في «معرفة أسباب التقديم والتأخير » .(٢) « فيما يتحقق به تفاضل العبارات » .(٣)

ويمكن أن نتناول نموذجاً للفتات ابن الزملكاني الجمالية: يقول في (التقديم): «قد يعرض للتقديم جهة ليست من الجهات المذكورة، وهي الخفة ، كقولهم : (ربيعة ومضر) ، وإنما قدمت ربيعة ، مع أن مضراً أشرف باصطفاء الله تعالى ، وجعل النبي ﷺ منها ، لئلا يفضي إلى كثرة الحركات المتوالية ، فأخرت مضر ، لتقف عليها بالسكوت ، وقد يكون تقديم

---

(١) التبيان ، ١٩٨ .

(٢) البرهان ، ص ٢٨٩ .

(٣) المصدر نفسة ، ص ٢٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإنس على الجن لهذا الغرض ، فالإنس أخف لمكان النون والسين المهموسة ، وكان تقديم الأثقل أولى لنشاط المتكلم في أول كلامه، ومن ثمّ لم يوقف إلاّ على ساكن » .(١)

ففي الفقرة السابقة يلتفت الزملكاني إلى سبب من أسباب التقديم وهو الخفة ، ليعلل به جمال التقديم في بعض المواضع .

وإذا كان ابن الزملكاني لا يتحدث في الذوق حديثاً مباشراً ، ويقدم تحليلات للآيات القرآنية وبعض النماذج الشعريّة ، فإنما هو في ذلك يقدم وسائل تعين عل تربية الذوق وإعلائه .

وعلى الرغم من عنايته بضبط القواعد ، الاّ أن روح عبد القاهر الأدبيّة لا تكاد تفارق شواهده وتطبيقاته ، على خلاف ما وجدنا عند الرازي .

---

(١) البرهان ، ص ٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــة

حاولت هذه الدراسة أنْ تقف على مفهوم الذوق في البلاغة العربيّة، من عبد القاهر الجرجانيّ، إلى السكاكي. فوقفت على مفهوم الذوق في الكتب النقديّة التي سبقت مرحلة الدراسة؛ ككتب ابن سلاّم، والآمدي، وابن طباطبا، والقاضي الجرجانيّ. فتبيّن أنَّ هؤلاء النقاد، قد تنبهوا لهذا المفهوم، وكان معياراً أساسياً في النقد لديهم.

وأما عبد القاهر الجرجانيّ، فقد أفاد مما جاء به النقاد السابقون عليه، فعُني بالذوق عناية خاصة، تمثلت في عقده باباً في دلائل الإعجاز؛ وضح فيه أهمية الذوق في دراسة فنّ القول. ولعلَّ الأمر البارز في دعوة الجرجانيّ للذوق، ماثل في إدراكه قيمةَ التعليل للحكم الذوقيّ؛ إذ يوظّف المعرفة باللغة من خلال (نظرية النظم) لتعليل حكم الذوق.

ولم يقف الجرجانيّ في ذلك على الدعوة النظريّة، بل راح يقدم نماذج تطبيقيّةً، تمثّل ذوقه، وتظهر قدرته على تعليل أحكامه وتفسيرها.

إنَّ مفهوم الذوق عند الجرجانيّ، يتمثل في قدرة البلاغة على تفسير الجمال الفنيّ، للوقوف على حقيقة الإعجاز القرآنيّ.

وتناولت الدراسة الذوق عند من جاؤوا بعد الجرجاني، كالزمخشريّ، والرازي وتبين أن الزمخشري قد عوّل على الذوق، باعتباره معياراً بلاغيّاً؛ ذلك في تفسيره الكشاف. ويمكن القول: إنَّ عملَ الزمخشري، كان مكملاً لما جاء به الجرجانيّ، إذ طبّق رؤية الجرجانيّ البلاغيّة، من حيث التحليل النحوي الجمالي، وتحكيم الذوق المعلل في الكشف عن الجمال الفني. غير أنّا لا نجد الزمخشري، يدير حديثاً نظرياً في هذه القضيّة، وكأنه أكتفى بما قدّمه الجرجانيّ، فراح يطبّق المفهوم دون الاشارة إليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعدُّ عملُ الزمخشريّ، من الأعمال البلاغيّة المتميزة في تاريخ البلاغة العربيّة.

ثم تناولت الدراسة مفهوم الذوق عند الفخر الرازي، من خلال كتابيه: نهاية الايجاز، والتفسير الكبير وتبين أن عمل الرازي في نهاية الايجاز – قد قام على بلاغة الجرجانيّ؛ إذ حصر قواعد البلاغة حصراً منطقيّاً، فلسفياً، فأهمل بذلك ما في البلاغة من روح أدبيّة، لتتجه بعد ذلك وجهتها التقعيديّة الجافة، بعيدة عن الذوق. ولم يختلف تفسير الرازي عن نهاية الإيجاز إذ نلحظ نزوعه إلى تناول النصّ القرآنيّ تناولاً منطقياً جافاً على خلاف ما وجدناه عند الزمخشريّ. وغاية الرازي في مذهبه هذا، غاية دينيّة تعليميّة.

وكان السكاكي، آخر البلاغيين الذين تناولتهم الدراسة. وتبيّن أنَّ السكاكي لم يهمل الذوق، وقد تنبّه لأهميته، وقيمته، وهو يقرر أن المرء لا يكون من البلاغة في شيء، إنْ لم يكن ذا ذوق، فالذوق عند السكاكيّ معيار بلاغيّ ملحوظ من الناحية النظريّة.

غير أن السكاكيّ، قد حذا حذو الرازي، في التقعيد والتحديد والاختصار، فلم يأخذ الذوق في منهجه وجوداً من الناحية التطبيقيّة.

وحقيق بالإشارة، أنَّ السكاكيّ قد تُجُنِّيَ عليه من قبل الدارسين، حينما يقررون أن الروح الأدبيّة والذوق، قد قتلا على يديه، فصارت البلاغة جملة من القواعد الجافة؛ فالسكاكيَّ لم يؤلف في البلاغة، وإنما هو يقدّم البلاغة جزءاً من منهج متكامل يبدأ بالأصوات والصرف، ويثني بالنحو والتركيب، ويثلّث بالبلاغة باعتبارها مستوى التفوق في أداء اللغة، ويقدم بعد ذلك ما يراه ثقافة تعيين المتعلم على فهم فن القول: كالاستدلال والعروض، وهذا منهج مقبول، ما دام صاحبه يتغيا غاية تعليميّة، يجاري بها إلف عصره.

وأما ابن الزملكاني ، فقد عني باختصار دلائل الإعجاز ، فأهمل الذوق من الناحية النظرية ، ولكنه لم يفارق روح عبد القاهر الأدبية فيما جاء لديه من تحليلات جمالية تقوم على أساس النظم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يتضح لنا كيف نضج مفهوم الذوق في البلاغة العربيّة، عند الجرجانيّ، والزمخشري، وتراجع هذا المفهوم، بسيادة التقعيد والتقسيم والاختصار عند الرازي، والسكاكي.

ونلحظ مما تقدم: أنَّ قضيّة الاعجاز القرآنيّ كانت مَشْغلة البلاغيين الذين تضمنتهم الدراسة جميعا، وأن الكشف عن الجمال الذي بلغت به العبارة القرآنيّة من التفوق والفرادة حدَّ الإعجاز – كان غايتهم جميعاً، وأنهم يؤمنون أن للذوق دوراً ذا خطر، إضافةَ الفروق البلاغيّة الأخرى، في دراسة الإعجاز القرآنيّ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصـــادر

- القرآن الكريم.
- الحسن بن بشر الأمديّ (- ٣٧٠هـ)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتريّ ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف ، مصر، ١٩٧٢م.
- حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي (- ٣٨٨ هـ)، بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، وزغلول سلام دار المعارف ، بمصر .
- القاضي أبو الحسن عبد الجبار الأسد آباري (- ٤١٥ هـ)، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، تحقيق أمين الخولي ، وزارة الثقافة ، القاهرة، ١٩٦٠م
- عبد القاهر الجرجانيّ (- ٤٧١هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، اسطنبول، ١٩٥٤هـ.
- عبد القاهر الجرجانيّ (- ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز: تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- عبد القاهر الجرجانيّ (- ٤٧١هـ)، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف
- القاضي علي بن عبد العزيز ابن الحسن الجرجاني (- ٣٩٢ هـ)، الرساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٤٥م .
- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (- ٣٨٤ هـ)، النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله أحمد وزغلول سام ، دار المعارف بمصر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علي بن محمد الجرجانيّ (- ٨١٦ هـ) ، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٩م.
- فخر الدين بن عمر الرازي (- ٦٠٦هـ)، نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، تحقيق د. ابراهيم السامرائي ود. محمد بركات أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥م.
- فخر الدين بن عمر الرازي (- ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- كمال الدين الزملكانيّ (- ٦٥١هـ)، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، تحقيق د. خديجة الديثي ، ود. أحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٧٤ م
- كمال الدين الزملكانيّ (- ٦٥١هـ)، التبيان في علم البيان ، تحقيق د. أحمد مطلوب ، ود. خديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٤م .
- محمد بن أحمد بن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق د. طه الحاجري ، د. محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦م.
- محمد بن سلام الجمحي: (ت ٢٣٢هـ)، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م.
- محمود بن عمر الزمخشريّ (-٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
- محمود بن عمر الزمخشريّ (-٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩م.
- محمد فؤاد عبد الباقي ،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن منظور ، لسان العرب، دار .صادر، بيروت، ١٩٥٥م.

- يوسف بن أبي بكر السكاكيّ (- ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، طبع مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٣٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المـــراجـــع

- أحمد أحمد بدوي ، عبد القاهر الجرجانيّ وجهوده في البلاغة العربية ، وزارة الثقافة والإرشاد ، القاهرة .
- د. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الأمانة، بيروت، ١٩٧١م.
- أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٧م.
- أحمد دهمان ، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجانيّ ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٦م .
- أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٧٣م.
- أحمد عبد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند الجرجانيّ، دراسة مقارنة، الهيئة المصريّة للكتاب، الاسكندرية.
- د. أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م.
- د. أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م.
- د. أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجانيّ، بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٩م
- أمين الخولي، فن القول، ؟ ، القاهرة، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.
- د. بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الانجلو المصريّة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
- د. بكري الشيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (الجزء الأول - علم المعاني)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- درويش الجندي، نظريـــة عبـــد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٢م.
- روز غريب، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، ط٢، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م.
- سيّد قطب، النقـد الأدبي، أصـــوله ومناهجـــه، دار الفكـــر العـربي، القاهرة، ١٩٤٧م.
- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.
- د. طه حسين، حافظ وشوقي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م.
- د. عبد العزيز عتيق ، في تاريخ البلاغة العربيّة، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.
- د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٨٣ م
- د. عبـــد القادر حســـين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار النهضة، القاهرة ١٩٧٥م.
- عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في الأدب عند العرب. ط٣، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٩٧٤م.
- فتحي أحمد عامـــر، من قضايا التراث العربي، منشأة المعارف، الاسكندريّة، ١٩٨٥م.
- فتحي أحمد عامر، فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، القاهرة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٩٧٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- د. لطفي عبد البديع، فلسفة المجاز بين البلاغة العربيّة والفكر الحديث، دار النهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ماهر مهدي هلال، فخر الدين الرازي بلاغيًا، وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٧٧م.
- مجدي وهبة، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٩م.
- د. محمد بركات أبو علي، معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر، دار الفكر، عمان، ١٩٨٤م.
- د. محمد بركات أبو علي، مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م.
- د. محمد بركات أبو علي، بحوث ومقالات في البيان والنقد الأدبي، دار البشير، عمان، ١٩٨٨م.
- د. محمد بركات أبو علي، دراسات في النقد الأدبي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٩م.
- محمد خلف الله أحمد، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، معهد البحوث والدراسات العربيّة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي والبلاغة، دار النهضة العربيّة، بيروت، ١٩٧٩م.
- د. محمد مندور، في الميزان الجديد، دار النهضة، مصر، القاهرة، ١٩٨٣م.
- د. محمود السمرة، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- د. مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف، مصر ١٩٦٨م.
- د. مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة والنقد بين التاريخ والفن، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٧٥م.
- د. مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٥م.
- وليد محمد مراد، نظرية النظم، وقيمتها العلميّة في الدراسات اللغويّة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م.

الرسائـــل

- أحمد أبو زقية، المبادئ الأساسية للسانيات العامة والأسلوبية من خلال دلائل الإعجاز، رسالـــة ماجســـتير، اشـــراف محمد بلقائد، جامعة الجزائر، ١٩٨٧م.
- د. عبد الكريم حياري، عبد القاهر الجرجانيّ في أسرار البلاغة، رسالة الماجستير من قسم اللغة العربية وآدابها، اشراف د. محمود السمرة، الجامعة الأردنية ١٩٧٧م. خاصة بالاستاذ محمد بركات أبو علي.
- عيسى بوفسيو، الخبر عند عبد القاهر الجرجانيّ والسكاكيّ، اشراف د. جعفر دك الباب، جامعة الجزائر، ١٩٨٩م.

المراجع الأجنبية

- Kamal Abu - Dib, Al-Jurjani`s Theory of Poetic Imagery

Warminster, Aris & Phillips, 1979

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The Concept of Literary Taste in Arabic Rhetoric Since Abdul al- Qahir al-Jurjani up to AL- Sakkaki

By
Ibrahim Ahmed Hassan Suliman

Supervised by
Prof ." Mohammad Barakkat " Abu - Ali .

This study aims at shedding light on the literary taste in Arabic rhetoric though its three chapters . Therefore, the first chapter deals with the concept of literary taste as understood by Abdul Qahir al- Jurjani (died 471 A. H.) This means that al-Jurjani's method is considered a basic criterion in the literary analysis and in revealing the aesthetic values in a text . The second chapter deals with the concept of literary taste as understood by those critics who came after al - Jurjani , such as al- Zamakhshari (died 538 A. H.) since this also depended on the , taste in the analysis of texts in his commentary (exegesis) called al - Kashaf . Al- Razi (died in 606 A .H .) is considered the father of a new phase in Arabic rhetoric , because he made use of logic and philosiphy and did not pay attention to literary taste . The third chapter deals with the concept of al - Sakkaki (died in 626 A.H.) since he was responsible for bringing to maturity the trend to have logic and rules depend on rhetoric . This took place despite al - Sakkak,s call for the dependence on literary taste in showing the inimitability of the Qura'n as he stated in his book " al-Miftah " . ٤٤٥٤٣٨

Thus Arabic rhetoric began with the dependence on literary taste in theory and practice as conceived by al - Jurjani and al - Zamakhshari and ended as a stiff group of logical and philosophical rules conceived by al - Razi and al - Sakkaki .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit